

ألمانيا والسلطنة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى تحالف تحت مظلة "الجهاد"

عبد الرؤوف سنو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

عندما تتناول وسائل الإعلام اليوم "الجهاد الديني" لمجموعات أصولية إسلامية متشددة تشكّل تهديداً للحضارة المسيحية وللشعوب العربية والإسلامية وكياناتها السياسية في آن، فإن قلّة من الباحثين تعلم أن ألمانيا استعملت قبل الحرب العالمية الأولى نفوذ السلطان العثماني كخليفة، وكذلك نفوذ جماعات جهادية إسلامية متعصّبة، لخدمة مصالحها الاستعمارية. وخلال الحرب، وضعت الدولة الألمانية خطة إستراتيجية لـ "تكريس العالم الإسلامي على الثورات ضد أعدائها" من الدول المسيحية تحت اسم "الجهاد الإسلامي".¹ صحيح أن ما يُسمى بالتعصّب الإسلامي ضد الغرب والحضارة المسيحية كان موجوداً في الماضي، ويُترجم في الوقت الراهن إرهاباً من قبل جماعات تدعي أنها الناطقة باسم الإسلام، وذلك نتيجة التجربة التاريخية مع "الصليبية" والاستعمار والتفسير الأحادي للإسلام وللعلاقة مع "الأخر"، إلا أن دولاً مسيحية لم تتوان في التاريخ المعاصر عن استغلال القوى الجهادية الإسلامية لتنفيذ مصالحها، حتى وإن شكّل ذلك تهديداً للحضارة الغربية، وما حصل على يد الولايات المتحدة في أفغانستان بخلق "القاعدة"، أسطع دليل على ذلك.

*

منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، تدرّج استخدام ألمانيا للسلطنة العثمانية، كأقوى دولة إسلامية في العالم، لخدمة مصالحها الاستعمارية، من الإعلان عن "صداقتها" للمسلمين في العالم في أكثر من مناسبة (زيارة الإمبراطور الألماني إلى بلاد الشام وكلمته في دمشق في العام 1898 وإلى طنجة في العام 1905)، إلى استخدام نفوذ السلطان العثماني كخليفة على المسلمين، وفق ما سمي بـ "الجامعة الإسلامية". وعندما عُقد التحالف بينها وبين الدولة العثمانية لخوض الحرب الكونية معاً، اشترطت ألمانيا على السلطان العثماني إعلان "الجهاد المقدس" ضد "دول الوفاق الثلاثي". ويذكر بعض المؤرخين أن إعلان "الجهاد" العثماني جاء بعد إلحاح شديد من قبل برلين.² فمن دون "جهاد إسلامي" ضد الدول المتحاربة مع ألمانيا، فلا قيمة لدخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا.³

¹ Politisches Archiv des Auswärtigen Amtes (PAAA)/Weltkrieg (WK), Nr. 11, R 20936, Akten betreffend den Krieg 1914, Unternehmungen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde. Allgemeines, Bd 1, K.

² George Lenceowski, The Middle East in World Affairs, Ithaca 1952, p. 39; Ulrich Trumper, 2

Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, Princeton/New Jersey 1968, p. 117.

أعلن الجهاد من قبل الدولة العثمانية في 7 تشرين الثاني 1914 من خلال خمس فتاوى أصدرها شيخ الإسلام خيرى بك على شكل أسئلة وجهت إليه. ورأت الفتاوى أن محاربة السلطنة من قبل المسلمين الخاضعين لدول الأعداء أو إلحاق الأذى بالدولتين الألمانية والنمساوية هو "إثم عظيم" -11- Koloniale Rundschau in: Martin Hartmann, Islampolitik, in: Hagen, pp. 3-4؛ 12(1914), pp. 588-590 وقارن بـ:

Geoffrey Lewis, The Ottoman Proclamation of Jihad in 1914, in: *The Islamic Quarterly* (London), 19, 3-4 (1975), pp. 157-163.

³ ألكسندر فيل، "عكاز لمن لا حيلة له. إستراتيجية ألمانيا الإسلامية بين 1914-1918. مئة عام على الحرب العالمية الأولى"، ترجمة رشيد بوطيب، مجلة فكر وفن، تشرين الثاني 2013

<http://www.goethe.de/ges/phi/prj/ffs/the/a100/ar12234130.htm>

ومن المفارقات العجيبة في الحرب، ظهور ثلاثية للجهاد الإسلامي: جهاد عثماني لصالح ألمانيا استخدم ضد دول مسيحية (الوفاق الثلاثي)، وجهاد شعبي للمرجعيات في كربلاء والنجف في العام 1915 ضد بريطانيا حيث عليه الألمان، و"جهاد عربي" أعلنه الشريف حسين بن علي في العام 1916 لحساب بريطانيا ضد ألمانيا المسيحية وحلفائها.

إن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا امتلكت ألمانيا كل هذا التأثير في السلطان العثماني، وسعت بالتالي للاستفادة من الإسلام العثماني وقوته الروحية والسياسية؟ ولماذا خضع السلطان العثماني لمشينة ألمانيا وأعلن "الجهاد المقدس" ضد دول مسيحية واستنتي دولاً مسيحية أخرى؟

إن الإجابة على الشق الأول من التساؤل يرتبط بحجم المصالح الألمانية في الدولة العثمانية، التجارية والاقتصادية والاستثمارية والعسكرية والثقافية، بحيث أضحى وجود السلطنة والحفاظ عليها في وجه مخططات الدول الأوروبية الأخرى لتقسيمها وتقاسمها ضرورة سياسية وإستراتيجية لألمانيا.⁴ فرفضت برلين على التوالي خلال العامين 1895 و1912 مشروعين بريطاني وآخر دولي لتقسيمها.⁵ أما بالنسبة إلى الدولة العثمانية، فإن ضعفها الذي ظهر بوضوح خلال القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين، وتُرجم نهشاً وقضماً لممتلكاتها في جنوب شرقي أوروبا وشمال إفريقيا والمشرق العربي، فضلاً عن الحروب البلقانية في العامين 1912/1913، والحرب في طرابلس (ليبيا) في العام 1912، جعلها تتطلع إلى ألمانيا لتكون حليفها ضد هجوم دول الاستعمار عليها. واعتقد الاتحاديون، حكّام استانبول، أن انتصار ألمانيا في الحرب، والتي لم تكن لديها أطماع في الاستيلاء على أراضٍ عثمانية، يمكّنها أن تحمي السلطنة من خطر التقسيم، فتتمكّن الدولة العثمانية من أن تستعيد مكانتها الدولية وأجزاء من ولاياتها التي خسرتها، وخصوصاً تلك التي استولت عليها روسيا،⁶ هذا بالإضافة إلى مصر الخاضعة للإحتلال البريطاني. وكانت هناك قيادات عسكرية عثمانية كأثور باشا، على سبيل المثال، ترى أن مستقبل السلطنة يكون في التحالف مع ألمانيا، وأن انتصارها في الحرب سوف يساعد الدولة العثمانية على استرجاع ما خسرت من ممتلكات، وأن تستعيد مكانتها الدولية، وإعادة فرض سلطانها على المسلمين.⁷

1- الأهداف الإستراتيجية العسكرية لألمانيا من التحالف مع السلطنة

قبل الحرب وخلالها، كان ألمانيا تدرك أن مستقبل اقتصادها يكمن في آسيا الصغرى والمشرق العربي. ورأت لجنة شُكلت عشية اندلاع الحرب "أن قدرات آسيا الصغرى الاستيعابية للرأسمال والصناعة والتجارة الألمانية لا تزال متاحة من خلال مشاريع سكك الحديد واستغلال ثروات الأرض الباطنية وتنمية الزراعة، وأن الحلّ الأفضل لاستمرار سياسة التغلغل السلمي (الألمانية) لا يكون بحلّ المسألة الشرقية، إنما في الحفاظ على الوضع الراهن،"⁸ أي على الدولة العثمانية. وجرى التعبير عن هذه السياسة بمشاريع بناء المرافئ والبنى التحتية وسكك الحديد التي أنشأتها ألمانيا، وأهمّها خط حديد برلين - بغداد.

⁴ PAAA/Türkei, 189, Sicherstellung der deutschen Interessen für den Fall der Lösung der Dardanellenfrage, Referent L.R. Rauffauf, II 17207, Berlin July 19th, 1894, Bl. 8 –12.

⁵ سنو، ألمانيا وسياسة "الاندفاع نحو الشرق"، ص 274 –275؛ وبالنسبة إلى الشائعات حول تقسيم السلطنة التي راجت في العام 1912، أنظر: عزيز بك، سوريا ولبنان في الحرب العالمية الأولى، ج3، لات، لام، ص 75 –77، وتحديداً نصيب ألمانيا من عملية التقسيم هذه. أما Hagen, p. 14. فينفيها جملة وتفصيلاً.

⁶ David Fromkin, A Peace to End all Peace. Creating the Modern Middle East 1914 –1922, London 1989, p. 66.

⁷ لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918، القاهرة 1984، ص 15.

⁸ PAAA/Türkei, 189, Sicherstellung der deutschen Interessen.

عسكرياً، كانت وزارتا الخارجية والحرب الألمانيّتان قبل الحرب تتجنبان توقيع معاهدة تحالف مع الدولة العثمانية بسبب ضعفها العسكري وخشية أن يورطها ذلك في صراع مع بريطانيا.⁹ في المقابل، عملت ألمانيا على تقوية علاقاتها بالدولة العثمانية في مجالات أخرى. فكانت أكبر مزود لها بالأسلحة، فضلاً عن تدريب جيشها.¹⁰ فارسلت الجنرال أوتو ليمان فون ساندرز (Otto Liman von Sanders) إلى استانبول ليكون رئيساً لبعثة عسكرية تقوم بتدريب الجيش العثماني، الذي أنهكته حروب البلقان وطرابلس، وذلك لزيادة فعاليته. وفي تموز 1914، بعث فون ساندرز بتقرير تحدّث فيه عن الخطوات التي تحققت في تدريب الجيش العثماني، وأن السلطنة تستطيع أن تضع ما بين أربعة إلى خمسة فيالق قتالية في أية حرب مقبلة.

وبعيد اندلاع الحرب، طرأ تعديل على إستراتيجية ألمانيا، وأصبحت تعمل على ضم الدولة العثمانية إليها في الصراع الكوني، أخذاً في الاعتبار موقعها الاستراتيجي، وإشرافها على الممرات العثمانية، وعلى الطريق البري الذي يربط بين وسط أوروبا والخليج العربي، فضلاً عن اتصال السلطنة جغرافياً مع فارس وأفغانستان وبالتالي الوصول إلى الهند. من هنا، فإن مشروع سكة حديد برلين - بغداد جسد إستراتيجية ألمانية برية للوصول إلى آسيا الصغرى عبر وسط أوروبا بعيداً عن مراقبة الأسطول البريطاني. وكانت ألمانيا تدرك أنها لا تستطيع أن تقارع بريطانيا بحراً كونها "سيدة البحار". هذا التحالف مع العثمانيين، وقر على ألمانيا إرسال أعداد كبيرة من جيوشها إلى الشرق كي لا تضعف جبهاتها في أوروبا.

قامت الإستراتيجية الألمانية الحربية، بالنسبة إلى استخدام الإسلام، على ثلاثة مرتكزات:

الأول: أن ينشط العثمانيون عسكرياً ضد بريطانيا في مصر، وضد روسيا في القوقاز والممرات العثمانية والبحر الأسود،¹¹ وذلك لضرب مواصلات بريطانيا مع الهند، والإمساك بروسيا برأً وبحراً، عبر القضاء على الأسطول الروسي في البحر الأسود ومهاجمتها في مناطقها القوقازية ذات الأهمية الاقتصادية.¹²

الثاني: إقامة حلف إسلامي عريض يضم الدولة العثمانية وفارس وأفغانستان، ليكون رأس حربة لمهاجمة الهند وطررد بريطانيا منها، وأن تكون فارس الجسر الذي تعبر عليه القوّات العثمانية إلى أفغانستان ومهاجمة الهند، وذلك "... لأن الطريق البري عبر الدول تلك هو الاتصال الوحيد الآمن مع الهند، من أجل تسهيل محاربة بريطانيا في الهند".¹³

الثالث: استخدام "الجهاد الإسلامي" وتعبئة المسلمين في المناطق الخاضعة لسيطرة الأعداء وتحريضهم على الثورة عليهم، أو على الحكومات الإسلامية التابعة لهم، في المشرق والمغرب العربيين، وفي فارس وأفغانستان والهند والقوقاز.¹⁴ لقد كان الألمان ينظرون إلى "الجامعة الإسلامية"، كخيرهم من الأوروبيين، على أنها حركة تعصّب ديني ضد أوروبا المسيحية. إلا أنهم كانوا من جهة أخرى يحتاجون لتعصّبها وإعلانها الجهاد في صراعهم مع "دول الوفاق الثلاثي". وقد أدرك رئيس أركان الجيش الألماني هلموت فون مولتكه (Helmuth von Moltke) أهمية "تثوير" الإسلام لمساعدة بلاده على تحقيق أهدافها من الحرب. فكتب إلى وزارة الخارجية في 2 آب

⁹ ألكسندر فيل، "عكاز لمن لا حيلة له، مرجع سبق ذكره.

¹⁰ فيل، "عكاز لمن لا حيلة له، مرجع سبق ذكره.

¹¹ William Yale, The Near East. A Modern History, Ann Arbor 1958, pp. 206-212; Jehuda Wallach, Anatomie einer Militärhilfe. Die preussisch-deutschen Militärmissionen in der Türkei 1835-1919, Düsseldorf 1976, p. 151, 167.

¹² Lothar Rathmann, Stossrichtung Nahost 1914 –1918, Berlin (Ost) 1963, p. 82.

¹³ PAAA/WK, Nr. 11, R 20937, vol. 2, Denkschrift Oppenheim, pp. 93 –94

¹⁴ Fritz Fischer, Griff nach der Weltmacht. Die Kriegszielpolitik des kaiserlichen Deutschland 1914/1918, 4. Aufl. Düsseldorf 197, pp. 146 –148.

1914، يوم توقيع معاهدة التحالف مع الدولة العثمانية، يقول: "إن إحداهم تمرّد في الهند ومصر والقوقاز له أهمية قصوى". ووصف أحد المراقبين الألمان المعاصرين "الجهاد المقدّس" الذي أعلنه السلطان العثماني بأنه "وسيلة قوية تسير جنباً إلى جنب مع الجيوش العثمانية في أراضي العدو"، وهو لا يجعل من "دول الوفاق الثلاثي" أعداء الدولة العثمانية فحسب، وإنما الإسلام قاطبة¹⁵.

واعتمدت القيادة العسكرية الألمانية أن حملة عثمانية ناجحة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس، سوف تزعزع مركز بريطانيا فيها وخطوط مواصلاتها الإستراتيجية مع الهند. فوضعت خططاً لنسف قناة السويس ومراكز إرشاد السفن، ومنشآت المياه، ومحطات البرق والجسور الحديدية والمرافئ في بور سعيد والإسكندرية.¹⁶ وتوقع الألمان أن الاستيلاء على مصر سيضع بريطانيا بين خيارين اثنين، إما إرسال نصف أسطولها إلى مياه الهند، مع كل ما يحمله هذا من تأثير سلبي في قوتها البحرية في مناطق الصراع الأوروبي، أو عقد السلام مع ألمانيا. وعقب إمبراطور ألمانيا على ذلك بالقول: "إن على البريطانيين أن يفهموا أن الحرب ضد ألمانيا ستعني خسارتهم للهند".¹⁷ وبالمقدار نفسه، توقع العثمانيون إمكانية تحرير مصر بدعم عسكري ألماني انطلاقاً من سورية (فلسطين).¹⁸

وقد شكّلت سورية وفلسطين أهمية إستراتيجية بالنسبة إلى الهجوم على قناة السويس. ففي الفترة ما بين اندلاع الحرب في آب 1914، وانضمام السلطنة إليها في تشرين الثاني من العام نفسه، أرسلت ألمانيا الأسلحة إلى غزة ويافا على متن سفن ألمانية أفرغت حمولتها في بيروت.¹⁹

وعلى المستوى نفسه، شكّل العراق أهمية إستراتيجية كبيرة لألمانيا، بسبب موقعه على الخليج وكونه طريقاً مهماً لمواصلات بريطانيا مع الهند.²⁰ وقد اقترح آرثور تسيمرنر (Arthur Zimmermann)، وكيل وزارة الخارجية الألمانية، بتاريخ 25 آب 1914 إرسال مبعوثين إلى السودان والحبشة للتحريض من هناك الشعب والجيش المصريين على الثورة.²¹ كما وضعت القيادة الألمانية خططاً لتحريض مسلمي المغرب ضد فرنسا، وإرسال الأسلحة والأموال إلى تلك المنطقة، لدفع الناس للثورة ضد الفرنسيين.

2- توظيف ألمانيا الجهاد الإسلامي: دور المستشرقين

لكل دولة وسائلها وأدواتها لمحاربة أعدائها وبالتالي الوصول إلى تحقيق أهدافها السياسية من الحرب. وفي الحروب، تُشرعن كلُّ الوسائل والأساليب. فقبل أسبوعين من اندلاع القتال، قال رئيس وزراء ألمانيا بتمان - هولفج (Bethmann-Hollweg): "إن على ألمانيا ألا تحارب سلاح العدو فحسب، وإنما عليها أن تصد أيضاً دعايته الكاذبة حول ألمانيا والنظرة الخاطئة التي تُعطى عنها".²² فأمر بالقيام بدعاية في الخارج، وطبع المنشورات وتوزيعها وإنشاء المكاتب لهذا الغرض. وعندما اندلع الصراع، وضع مستشرقون واقتصاديون ألمان أنفسهم بتصرف المجهود الحربي الألماني. ومن هؤلاء على سبيل المثال: ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim)، وباول رورباخ (Paul Rohrbach)

¹⁵ Galli, p. 29.

¹⁶ Fischer, pp. 149-150. ويذكر المؤرخ المصري وجيه عبد الصادق عتيق، دراسات في تاريخ مصر الحديث في ضوء الوثائق الألمانية، القاهرة 1999، ص 59-60 أن الألمان حاولوا بالفعل إغراق إحدى السفن التجارية في القناة بعد تفجيرها لتعطيل الملاحة. لكن هذه الخطة اكتشفت في اللحظة الأخيرة.

¹⁷ Fischer, Griff nach der Weltmacht, p. 139; Wilhelm von Kampen, Studien zur deutschen Türkenpolitik in der Zeit Wilhelms II, Ph.D, thesis, University of Kiel, p. 66.

¹⁸ F.O. 371/59, Cromer to Grey, secret, No. 146, Cairo, Dec.12th. 1905.

¹⁹ Edwin Pears, "Turkey, Germany and the War", *The Contemporary Review* 107 (1915), pp. 286-7.

²⁰ ل.ن.، كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، تعريب عبد الواحد كرم، بيروت/بغداد 1975، ص 61-4.

²¹ Rathmann, p. 121.

²² Irmgrad Farah, Die deutsche Pressepolitik and Prognadatätigkeit im Osmanischen Reich von 1908-1918 unter besonderer Berücksichtigung des Osmanischen Lloyd", Beirut 1993, pp. 235-6.

وأرنست ياكه (Ernst Jäckh)، وفريدريش ناومان (Friedrich Naumann). يُضاف إليهم كارل هـ. بيكر (Carl H. Becker)، وهوغو غروته (Hugo Grothe) وأويغن متفوخ (Eugen Mittwoch)²³ وغيرهم.

ويُعتبر ماكس فون أوبنهايم²⁴ أحد كبار الشخصيات الألمانية التي لفتت الانتباه قبل الحرب إلى أهمية استخدام "الجامعة الإسلامية"، و"الجهاد الإسلامي" ووجوب اعتماد ألمانيا خطاباً مؤيداً للمسلمين، وصفة السلطان العثماني كخليفة، من أجل استمالة الشعوب الإسلامية الخاضعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا للقيام بانتفاضات تنهك هذه الدول وتُشغل قواتها في حال اندلع الصراع بينها وبين ألمانيا.²⁵

وعندما اندلعت الحرب، أدرك أوبنهايم ضرورة استحداث مؤسسة تتولى "تشوير" العرب والمسلمين ضد أعداء بلاده. فتقدّم بمذكرتين إلى رئيس الوزراء الألماني بتاريخ 18 آب 1914، ومذكرة ثالثة في مطلع تشرين الأول حول أهمية تحريض المسلمين على الثورة في مناطق العدو.

وتعتبر المذكرة الأخيرة الأهم والأكثر تحديداً لكيفية محاربة ألمانيا "دول الوفاق الثلاثي" عبر إثارة العالم الإسلامي واستخدام "الجهاد المقدس" وصفة السلطان العثماني كخليفة، ونشر الدعاية باسمه، من خلال منظمة محدّدة الأهداف. وأكد أوبنهايم، أن كلّ المصريين والسوريين المسلمين، ومن ضمنهم علماء الأزهر والجماعات الإسلامية، هم مع الدولة العثمانية وألمانيا، وذلك كراهية بدولة الاحتلال بريطانيا، فيما يناصر الأقباط والمسيحيون السوريون والأرمن "دول الوفاق الثلاثي". وتوقّع أن ينازح المصريون والمسلمون السوريون إلى "دول الوسط" حالما تُلحق الهزائم بالبريطانيين في أوروبا، وتعبّر طلائع الجيش العثماني الزاحف من فلسطين إلى مصر قناة السويس. ولم يستثن أوبنهايم من مخططاته أهمية الخديوي عباس حلمي الثاني والطريقتين السنوسية في "ليبيا" والمهدية في السودان للتأثير في مصر. وخلص إلى أن سقوط مصر بأيدي العثمانيين بدعم من مستشارين ألمان، سوف يغيّر مجرى الحرب كلها.

وفي ختام المذكرة، حدّد أوبنهايم الهدف المركزي لبلاده، وهو جعل الإسلام سلاحاً يخدم المصالح الألمانية. فقال: "إن الإسلام سوف يكون أهم أسلحتنا على الإطلاق في الصراع الجبرين على خوضه ضد إنكلترا، لأن علينا أن نخوضه بالسكين". وأضاف، لقد تمكّننا من فرش الأرضية لثورة إسلامية عامة، وإن إمبراطور ألمانيا قد "... أدرك منذ الوهلة الأولى أهمية هذه اللحظة التي يمكن من خلالها الاستفادة من الشعوب الإسلامية، بعدما ثبت في نظر المسلمين إجلاله للإسلام وأظهر لأتباع هذا الدين المودة والمساعدة". وختّم أوبنهايم بالقول: "إن عشرين سنة من الإقامة في الشرق تجعلني مقتنع بأن جلاله الإمبراطور يحظى على الاحترام والتبجيل من أعماق القلوب في كلّ العالم الإسلامي"²⁶.

²³ عمل رورباخ بعد اندلاع الحرب في قسم الأخبار في دائرة البحرية، وأصبح في تشرين الأول 1914 رئيساً لدائرة الشؤون الخارجية في وزارة الخارجية الألمانية. أما ياكه، فترأس دائرة الشؤون الاقتصادية. كما عُيّن ناومان رئيساً لدائرة وسط أوروبا. وترأس عالم الإسلاميات بيكر حلقة دراسية في وزارة الخارجية حول الأوضاع في منطقة الشرق الأدنى. أخيراً وليس آخراً، قام غروته خلال الحرب برحلات دعائية لمصلحة بلاده في هنغاريا ورومانيا والدولة العثمانية. حول نشاطات هؤلاء المستشرقين، راجع: Rathmann, pp. 107–108.

²⁴ (1860 – 1946) مستشرق ألماني من أصل يهودي قام برحلات استكشاف إلى المغرب والصحراء الغربية وسورية والعراق وآسيا الصغرى والخليج العربي، وأقام في مصر بين العامين 1896 و1909. وبين العامين 1896 و1909، وضع 12 مجلداً تضمّنّت تقارير حول كيفية استغلال ألمانيا الإسلام والجامعة الإسلامية في صراعاتها ضدّ كلّ من بريطانيا وفرنسا. وقد وضع أوبنهايم عدد من المذكرات تتعلّق بالتطوّرات في مصر وشمال إفريقيا وعلاقة مصر ببريطانيا. راجع:

Hans Dirk Studt, Max von Oppenheim und der Nahe Osten – Lebensraum oder politische Intrige? *asien afrika lateinamerika*, 27 (1999), pp. 137 – 157.

²⁵ حول سياسة أوبنهايم في استغلال الجامعة الإسلامية وصفة السلطان العثماني كخليفة في مخططات ألمانيا الإمبريالية قبل الحرب، أنظر تقاريره في: PAAA, *Orientalia Generalia* 9, Nr. 1, Berichte Oppenheim, 12 vols. 1896. أنظر تقاريره في: PAAA, *Orientalia Generalia* 9, Nr. 1, Berichte Oppenheim, 12 vols. 1896. –1909.

²⁶ PAAA/WK, Nr. 11, R 20937, vol. 2, Denkschrift Oppenheim, p. 125.

وقبل أيام قليلة من بدء الحرب، كتب الإمبراطور على هامش برقية وصلته من الجنرال فون ساندرز تتعلق برغبة الأخير في العودة إلى ألمانيا في حال اندلعت الحرب، فقال: "عليكم البقاء (في الدولة العثمانية) وشن الحرب وإضرام الثورة ضد بريطانيا. ألا يعرف" (ساندرز)، أضاف الإمبراطور، "حول التحالف القادم (مع الدولة العثمانية)، والذي عليه أن يتولى قيادته"²⁷. وختم الإمبراطور بالقول: "... على قناصلنا وعملائنا في تركيا والهند تحريض كل العالم الإسلامي من أجل الثورة الضاربة ضد هذا الشعب التاجر الصغير المكروه وعديم الضمير (البريطاني). فعندما ننزف نحن، فعلى بريطانيا أن تخسر الهند على الأقل"²⁸.

3- الدعاية الألمانية في المشرق العربي: وسائل وأدوات

حدّد قنصل ألمانيا في دمشق ثلاث مهام تقع على عاتق الدعاية الألمانية بالنسبة إلى السكان المحليين، وخصوصاً في مجال اختصاص قنصليته، وهي: 1- إقناعهم بقوة ألمانيا وفعاليتها. 2- تعريفهم بالمنافع التي سيجنونها من جراء الانحياز إلى جانب ألمانيا، و3- الحسنات التي سيحصلون عليها في حال الاشتراك في الحرب ضد "دول الوفاق الثلاثي"²⁹.

ولتحقيق هذه الأهداف، تأسس في برلين في العام 1915 "مكتب استخبارات الشرق" (Die Nachrichtenstelle für den Orient) برئاسة أوبنهايم، وله فروع في مدن الدولة العثمانية وبلاد الشام، وذلك للتحريض على الجهاد والإشراف على الدعاية في البلدان الشرقية والإسلامية. واعتبر المستشرق أن من أولويات "مكتب الاستخبارات" "تقوية مشاعر الصداقة بين الألمان وشعوب الشرق وتقريبهما من بعضهم البعض، من أجل تطوير المصالح المشتركة بينهم"³⁰. سبق ذلك بأشهر قليلة، قيام أوبنهايم وعدد من المستشرقين والخبراء الألمان بنشاط دعائي متواضع لبلادهم، من خلال استحداث دوائر متخصصة للتواصل مع الشعوب التركية والعربية والهندية والروسية. وبعد اتساع نطاق عمل "المكتب" خلال العامين 1915 و1916، أضيفت إليه دائرتان وهما: الفارسية والتركية - القانونية. وألحقت بكل هذه الدوائر أقسام للتحرير وأخرى لإصدار الصحف. أما من ناحية أعداد الألمان العاملين في "المكتب" في العام 1915/1914، فبلغ 12 من المستشرقين والموظفين القنصليين والتجار والمبشرين. ثم ارتفع العدد إلى 29 بعد ذلك التاريخ، في حين وصل عدد الشخصيات الشرقية العاملة مع "مكتب الاستخبارات" في برلين إلى عشرة أشخاص،³¹ وعدد المكاتب الفرعية وصلات الدعاية في الدولة العثمانية إلى 70.

سار العمل في "مكتب استخبارات الشرق" في أربعة مجالات رئيسية: جبهات القتال التي يحارب فيها جنود مسلمون حلفاء لألمانيا، وذلك للتشهير بالعدو بأنه يحارب بجنود شرقيين ومسلمين؛ التأثير النفسي في أسرى الحرب من العسكريين المسلمين في المعتقلات الألمانية لجعلهم يلتحقون بالجيوش العثمانية؛ الاهتمام بنشر الدعاية في الدول المحايدة وفي البلدان الإسلامية الحليفة لألمانيا، وإقامة علاقات شخصية مع دوائر شرقية في ألمانيا والدول المحايدة؛ وأخيراً الدعاية في ألمانيا نفسها، من خلال التبرير للرأي العام الألماني حول أسباب التحالف مع دولة إسلامية مكروهة، وهي الدولة العثمانية.³²

وللاضطلاع بهذا العمل الواسع، استعان أوبنهايم بفريق من المستشرقين الذي سبق ذكره. وتوالى على إدارة "مكتب الاستخبارات" بعد أوبنهايم، على التوالي كلٌّ من شابنغر ومتفوخ. وتمكّن أوبنهايم من أن يستقطب عدداً كبيراً من الشخصيات السياسية والفكرية الوطنية العربية والإسلامية والصوفية

²⁷ نقلاً عن: Fischer, Griff nach der Weltmacht, pp. 139 –140.

²⁸ Lothar Rathmann, Stossrichtung, pp. 118 –119.

²⁹ PAAA/WK Nr. 11g, R21128, vol. 6, A 5037, Hardegg to Wagenheim, Damascus Dec. 21st 1914.

³⁰ PAAA, adh1, R 1517, vol. 8, Schabinger to Wesendonk. رسالة غير مؤرخة عثر عليها المؤلف في الملف المذكور.

³¹ PAAA/Deutschland 126g adh1, R 1535, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient 1914 1-4. -1918, pp. 1-4.

³² Farah, p. 239.

المعروفة، وذلك بهدف نشر المؤلفات، والإشراف على إصدار الصحف والمجلات أو التحرير فيها، وإلقاء الخطب، والترويج لما هو في مصلحة بلاده. فكان الدبلوماسيون والقناصل الألمان يقومون بتوزيع مواد الدعاية هذه في المشرق والمغرب العربيين، وتعاونهم في ذلك بالنسبة إلى المشرق العربي "شركة سكة حديد برلين - بغداد" والمؤسسات المصرفية والتجارية والثقافية الألمانية، ومؤسسات أوروذدي باك (Orosdi Back) النمساوية بفروعها في الأستانة وحلب وبيروت والقاهرة.³³ وعلى الصعيد الإعلامي، طلب من الصحافة الألمانية توطيد صلاتها بالصحف المحليّة الموجودة بكثرة في الأستانة وتزويدها بالأخبار عن مجريات الحرب، وأن تأخذ تقاريرها في الاعتبار التقاليد الشرقية وحساسيات الشرقيين، وتتجنب استخدام العبارات المسيئة للإسلام والمسلمين.³⁴ كما طلب منها الإسهاب في الأخبار حول الانتفاضات في الهند وطموحات الشعب الهندي وبقية البلدان الإسلامية للتخلص من الاستعمار.³⁵ وجرى أيضاً فصل القسم الفرنسي عن القسم الألماني في جريدة (Osmanischer Lloyd) التي تأسست في الأستانة العام 1908 لمجابهة دعاية "دول الوفاق الثلاثي"، وذلك في صحيفتين منفصلتين وبتمويل من تجار وصناعيين ألمان، وذلك بهدف إيصال آراء ألمانيا إلى المثقفين العرب والأتراك. وعملت الصحيفة على تزويد الوكالات العربية والصحف العربية المحليّة بالأخبار.³⁶

كما قام "مكتب استخبارات الشرق" بإنشاء صحف ونشرات خاصّة به باللغة الألمانية منذ نيسان 1915، وأهمها: Korrespondenzblatt der Nachrichtenstelle für den Orient و Der Neue Orient و Stimmen des Orients ومجلة "الجهاد" (El-Dschihad) الأسبوعية باللغات الشرقية، والهدف من الإصدارات الثلاثة الأولى، نقل المعلومات الصحيحة عن الشرق والإسلام إلى الرأي العام الألماني، فيما كانت النشرة الأخيرة للتأثير في الأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية، كي يعاد تجنيدهم من جديد والقنال ضمن وحدات الجيش العثماني.

كذلك، دعم "مكتب الاستخبارات" الصحف الإسلامية التي تأسست في برلين، ومنها "العالم الإسلامي" (Die Islamische Welt) وصحفاً عربية كـ "العهد" و"الرأي العام" و"الشرق" و"الاتحاد العثماني". كما كانت "جورنال دو بيروت" (Journal de Beyrouth) لصاحبها جرجي حرفوش تؤيد السياسة الألمانية لقاء دعم مالي تحصل عليه من "البنك الألماني" (Deutsche Bank) وتنشط كوكالة لإشراف على الاشتراكات والمبيعات في الطرقات.³⁷ وقد وصف قنصل ألمانيا في بيروت الصحيفة الأخيرة بأنها "مدافع موثوق فيه عن المصالح العثمانية والألمانية"، تعمل على نشر أخبار الحرب نقلاً عن المصادر الألمانية ومقتطفات من الصحافة الألمانية.³⁸ وفي الوقت نفسه، حصلت جريدة "أبايل" البيروتية الأسبوعية لصاحبها محمد الحبال على دعم ألماني من أجل إعادة إصدارها في دمشق. وعملت القنصلية الألمانية في حيفا على تقديم دعمها المالي لصحيفة "المهاجر" التي كانت تصدر لحساب الجالية الجزائرية في دمشق. كما تقرّبت القنصلية المذكورة إلى محمد كرد علي صاحب

³³ PAAA Akten betr. den Krieg 1914. Unternehmungen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde. Allgemeines vom Juli 1914 – 30 Nov. 1914, Bd. 1, Der Weltkrieg R 20936, A 17810, No. 11, Oppenheim to Bethman-Hollweg, No. 1, Berlin, Aug. 18th 1914.

³⁴ ك: "الهنود الديمويون" و"المغاربة السفاحون"، و"الشياطين السود" للدلالة على الأفارقة الزوج. أنظر: Farah, p. 240.

³⁵ PAAA/WK, Nr 11g, R 20937, Akten betreffend den Krieg 1914: Unternehmungen und Aufwiegelung gegen unsere Feinde, vol. 2, Denkschrift Oppenheim: "Die Revolutionierung des islamischen Gebieten unserer Feinde.

³⁶ حول تأسيس جريدة اللويد، أنظر: Farah, pp. 85–102. وحول فصلها إلى جريدتين، المرجع نفسه، ص 261 – 268.

³⁷ Jacobsen, pp. 98-99.

³⁸ PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, A 5037, Mutius to Wagenheim, No. 3295, Beirut Dec. 9th, 1914.

"المقتبس"، وعملت على نقل تحرير جريدة "المفيد" لعبد الغني العريسي من بيروت إلى دمشق بسبب قوة تأثيرهما في الرأي العام.³⁹

ومن نشاطات "مكتب الاستخبارات" في الدولة العثمانية تفعيل عمل "الرابطة الألمانية - التركية" (Deutsch-Türkische Vereinigung) التي كانت تنشط منذ إنشائها في شباط 1914 على تدعيم العلاقات الثقافية بين ألمانيا والسلطنة وتعزيزها.⁴⁰ وفي نهاية العام 1915، أُفتتح "المركز الاقتصادي الألماني - العثماني" (Deutsch-Türkische Wirtschaftszentrale) في العاصمة العثمانية. وفي نيسان 1917، دُشن في الأستانة "بيت الصداقة الألمانية - التركية" (Haus der deutsch-türkischen Freundschaft) بحضور شخصيات دبلوماسية ألمانية وعثمانية.⁴¹ وجاء تفعيل هذه المؤسسات الثقافية والاقتصادية وفق نصيحة وجهها أوبنهايم إلى المسؤولين الألمان بضرورة الالتفات إلى الشائين الاقتصادي والثقافي في الدولة العثمانية، وذلك بعدما حَقَّق النفوذ الألماني العسكري في الجيش العثماني، عبر المستشارين والخبراء الألمان، مكانة مرموقة.⁴² وبسبب عدم وجود أية مدرسة ألمانية في دمشق، اقترحت الفئصلية الألمانية في المدنية فتح مدارس ألمانية بكثرة فيها من أجل التعويض عن إغلاق المدارس الفرنسية والبريطانية والروسية.⁴³

أما عن نشاطات "مكتب الاستخبارات" في ألمانيا، فكان أهمها إنشاء "معسكر الهلال" (Halbmondlager) في ناحية فونسدورف (Wünsdorf) ببرلين في تموز 1915، و"معسكر فاينبرغر" (Weinbergerlager) في منطقة تزوسن (Zossen) قرب مدينة بوتسدام. وضم "معسكر الهلال" مسجداً بمئذنة خشبية ارتفاعها 23 متراً. كانت الغاية من المعسكرين هي إيواء الأسرى المسلمين الذين كانوا يحاربون في جيوش "دول الوفاق الثلاثي" ووقعوا في أسر القوات الألمانية، وخصوصاً الهنود والعرب في شمال إفريقيا، أو المسلمين من التتار، ومعاملتهم معاملة حسنة بإشراف ضباط يلمون باللغات الشرقية، والسماح لهم كذلك بممارسة شعائرهم الدينية، وفي مقدمتها صلاة الجمعة.⁴⁴ والهدف من وراء ذلك، هو نشر الدعاية حول مواقف ألمانيا المتسامحة تجاه الإسلام، والحصول بالتالي على استحسان العالم الإسلامي، وإعطاء المعتقلين المسلمين الانطباع بأنهم ليسوا أسرى وإنما "ضيوفاً" على ألمانيا وبالتالي إقناعهم بالانخراط في الجيش العثماني ضد "دول الوفاق الثلاثي".⁴⁵

لقد حُدد الهدف من إنشاء معسكري الاعتقال على أنه من أجل "استغلال الأسرى المسلمين والهنود لأغراضنا (ألمانيا) السياسية"⁴⁶. وهذه "الأغراض السياسية" عبّرت عنها وزارة الخارجية الألمانية في مذكرة رفعتها إلى الإمبراطور وليم الثاني، وجاءت على الشكل التالي: "من أجل التعبير عن علاقات الود المعلنة بين الدولة الألمانية والشعوب الإسلامية والتي تحظى على رعاية جلالكم، ومن أجل التأثير في المحاربين المسلمين في جانب العدو، فسوف تتم معاملة الأسرى المسلمين (الذين يقعون في

³⁹ PAAA/WK Nr. 11g, R 21126, vol. A 35153, No. 138, Löytved Hardegg to Bethmann Hollweg, Haifa Nov. 26th, 1914.

⁴⁰ Max Freiherr von Oppenheim, Die Nachrichtensaal-Organisation und die wirtschaftliche Propaganda in der Türkei, ihre Übernahme durch den Deutschen Überseedienst, Streng vertraulich!, Berlin 1917, pp. 6-7.

⁴¹ Norddeutsche Allgemeinen Zeitung, No. 118, 30. April, 1917.

⁴² Farah, p. 272.

⁴³ PAAA/WK Nr. 11g, R 21126, vol. A 35153, No. 138, Löytved Hardegg to Bethmann Hollweg, Haifa Nov. 26th, 1914.

⁷¹ Müller, p. 219.

⁴⁵ Müller, p. 219 ؛ أنه/هاينه، مرجع سبق ذكره، ص 211.

⁴⁶ نقلاً عن: Gerhard Höpp, Arabische und islamische Periodika in Berlin und Brandenburg, Berlin 1994, p. 9.

يد الجيش الألماني) معاملة مميزة. وسوف يتمتع هؤلاء بكل الحرية تحت إشراف ضباط منتقون".⁴⁷ وضم معسكرا الاعتقال نحو 15 ألفاً من الأسرى المسلمين في العام 1916.⁴⁸ إشارة إلى أن بريطانيا اتبعت الأسلوب الألماني نفسه، وذلك عبر إطلاق سراح الأسرى العرب لديها، وخصوصاً الضباط العراقيين الذين خدموا في الجيش العثماني، كي يحاربوا العثمانيين مع القوات العربية التابعة للشريف حسين.⁴⁹

ومن أجل تفعيل الدعاية بين الأسرى المسلمين، جاء إنشاء مجلة "الجهاد". وتألقت هيئة تحريرها من المستشرقين الألمان والمسلمين، ومنهم عبد العزيز جاويز (1876-1929) وصالح الشريف التونسي (1869-1920) ومحمد خضر حسين (1876-1958) ومنصور رفعت (1883-1926) وعبد الرشيد إبراهيم (1835-1944) وغيرهم.⁵⁰ وكان بعض هؤلاء يزور معسكري الاعتقال من وقت إلى آخر لإلقاء المحاضرات والخطب على الأسرى لقاء بدل مالي.

وقد قامت استراتيجية "مكتب الاستخبارات" على تركيز الدعاية في آسيا الصغرى وسورية والعراق انطلاقاً من العاصمة العثمانية. فتأسست قاعة أخبار مركزية في الأستانة تُدار من قبل السفارة الألمانية هناك، ويتفرّع منها مراكز وصلات أخبار في الولايات والمدن. وقد عملت القاعة المركزية على تحرير التقارير والأخبار التي تصلها من برلين حول مجريات الحرب وتزويد المراكز والصلات بها من أجل إعادة نشرها في الصحف المحلية، فضلاً عن عرض الأفلام الدعائية، وتوزيع الصور عن المعارك والمناسير والكتيبات والمجلات المترجمة إلى 15 لغة إفريقية وآسيوية و9 لغات أوروبية. وبشكل عام، وصل عدد عناوين المنشورات التي أصدرها "مكتب الاستخبارات" بين تشرين الأول العام 1914 وتموز العام 1918 إلى 1,012 عنواناً، طبع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.⁵¹

وفي ما يتعلّق بتركيا الآسيوية، بلغ حجم توزيع مواد الدعاية خلال العام 1915 ما بين 500 و3,000 من كل قطعة. وما لبث أن ارتفع عددها إلى 10 آلاف نسخة باللغة العثمانية و8 آلاف نسخة باللغة العربية. وكان أعلى رقم للتوزيع، هو على التوالي في مدن حلب وبغداد وبيروت ودمشق والمدينة المنورة (انظر الجدول 1). واعتبر توزيع المنشورات بين الحجيج في الأماكن المقدسة للإسلام مهم جداً للدعاية الألمانية، وذلك بسبب أهميتها الدينية للمسلمين. وحتى بعد انطلاق الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية، ظلّت الدعاية الألمانية قادرة على ما يبدو على التحرك في الجزيرة العربية. ويذكر دوبره أن منشوراً بالعربية اكتُشف في خريف 1916، وتضمّن اتهامات موجّهة إلى فرنسا بأنها تسعى إلى تدمير الإسلام والأماكن المقدسة ومكة المكرمة ونقل الحجر الأسود إلى متحف اللوفر (Louvre Museum).⁵²

جدول رقم (1) النسب المئوية لتوزيع مواد الدعاية الألمانية في آسيا الصغرى والمشرق العربي⁵³

⁴⁷ نقلاً عن: Iskander Giljazov, Die Muslime Russlands in Deutschland während der Weltkriege als Subjekte und Objekte der Grossmachtspolitik, in: Gerhard Höpp/Brigitte Reinwald (Hgg.), *Fremdeinsätze. Afrikaner und Asiaten in europäischen Kriegen, 1914-1945*, Berlin 2000, p. 144.

⁴⁸ Gerhard Höpp, Die Wünsdorfer Moschee: Eine Episode islamischen Lebens in Deutschland, 1915 – 1930, in: *Die Welt des Islams* 36, 2(1996), 204 –208.

⁴⁹ زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت 1971، ص 71.

⁵⁰ Höpp, Arabische und islamische Periodika, p. 9.

⁵¹ PAAA/ Deutschland 126g, adh1, R 1535, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient 1914 –918.

⁵² Dupre, p. 172.

⁵³ Jacobsen, German Attempts, p. 98.

المدينة	النسبة المئوية	المدينة	النسبة المئوية
استانبول	4	بيروت	10
أضنه	1	القدس	10
حلب	5,20	الموصل	7
بغداد	5,20	مناطق أخرى	2
دمشق والمدينة	25		

وبالنسبة إلى المغرب الأقصى، وخصوصاً منطقة الاستعمار الإسباني في الريف، فقد تسرّبت الدعاية الألمانية إليه عبر قنوات دبلوماسية ألمانية في مدريد وبرشلونة،⁵⁴ وقامت بتحريض القبائل ضد فرنسا وتوزيع الأموال عليها.⁵⁵ أما في شأن مصر، فعين أوبنهايم مندوبين له في روما ونابولي وأثينا لجمع الأخبار عن أحوالها. وقام بتشكيل أقلام للمخابرات في نابولي وبيروت وطرابلس (ليبيا) من أجل الاتصال بها ودفع شعبها للثورة في الوقت المناسب. كما استُحدثت شيفرة للاتصال بين الإسكندرية والآستانة وفيينا.⁵⁶

عن أنشطة "المكتب"، فتوزّعت ما بين إرسال مبعوثين ألمان إلى تلك البلدان الإسلامية، وبخاصة إلى الهند ومصر وشمال إفريقيا،⁵⁷ كما يظهر من الجدول رقم 2، إلى الحصول على المعلومات الاقتصادية والسياسية والعسكرية في تلك المناطق وفي الدول المحايدة وإقناع شعوبها وحكوماتها بوجهة النظر الألمانية.⁵⁸ كما يندرج تحت هذا العنوان، تشكيك المسلمين بأهداف "دول الوفاق الثلاثي" من جراء الحرب.

⁵⁴ Fischer, pp. 152 – 153; , Walter B.Harris, France, Spain and the Rif, London 1927, pp. 59-60;

⁵⁵ Walter B.Harris, pp. 59 –63.

⁵⁶ لطيفة سالم، ص 347.

⁵⁷ حول هذا الموضوع، أنظر ملفات الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية في برلين المتعلقة بالحرب العالمية الأولى وكيفية إثارة المسلمين ضد "دول الوفاق الثلاثي": Der Weltkrieg Nr. 11 R 20936f., Unternehmungen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde.

⁵⁸ Heine, p. 197.

جدول رقم (2) البعثات الألمانية لتحرير العالم الإسلامي على الثورة ضد دول الوفاق الودي⁵⁹

المبعوثون/الناشطون	المهنة	-الوظيفة خلال 1914 1918	البلدان التي زارها
Baron Max von Oppenheim	عالم آثار ودبلوماسي	رئيس دائرة الاستعلام العسكري	مصر والعراق وسورية والدولة العثمانية والجزائر
Col. Hermann Frobenius	ضابط		العراق وفارس
Johann von Berntorff	دبلوماسي	سفير في واشنطن ثم في استانبول	مصر
Fritz von Papen	ضابط	الولايات المتحدة	الدولة العثمانية
Dr. Konrad Preusser	طبيب وعالم آثار		العراق ومصر والدولة العثمانية
Oskar Ritter von Niedermayer	عالم جيولوجيا	رئيس بعثة في طهران	العراق وفارس
Wilhelm Wassmuss	دبلوماسي	تنظيم فدائيين في فارس	العراق وفارس وكرديستان
Werner-Otto von Hentig	دبلوماسي	بعثة إلى فارس وأفغانستان	أفغانستان وفارس
Fritz Grobba	محام ودبلوماسي	بعثة إلى الجزيرة العربية	دمشق وفلسطين
Leo Frobenius	عالم آثار	بعثة إلى الجزائر	الجزائر وتونس والسودان
Hans von Kalle	ضابط	بعثات إلى المغرب	طنجة والمغرب وإسبانيا
Carl von Neufeld	?	1917	الجزيرة العربية والحجاز والسودان

4- مضامين الدعاية الألمانية

هدفت الدعاية الألمانية، تقارير وكتب وكتيبات وصحف ومجلات ومناشير وصور فوتوغرافية وبطاقات بريدية، التي كانت ترسل إلى المراكز العربية والإسلامية للوكالة، فضلاً عن الرسائل المفتوحة من قيادات وطنية عربية وإسلامية إلى شخصيات سياسية دولية،⁶⁰ إلى إثارة العالمين الإسلامي والعربي ضد "دول الوفاق الثلاثي". يُضاف إلى ذلك، اتصالات القناصل الألمان بالسكان المحليين⁶¹ وبالشخصيات القيادية والعسكرية والدينية والثقافية والإعلامية وبأعيان المدن لنشر الدعاية والمناشير وعرض الأفلام عن الحرب،⁶² وكذلك المحاضرات التي كان يلقها المنفيون العرب والمسلمون في ألمانيا على الألمان وعلى الأسرى المسلمين في معسكرات الاعتقال وفي الأعياد الإسلامية ببرلين.⁶³ واللافت، أن معظم مواد الدعاية التي كانت توزعها الأجهزة الألمانية لا تحمل

⁵⁹ نقلاً عن: Faligot/Kauffer, Le Croissant et la croix gammee, p. 36.
⁶⁰ أسكوبث، رئيس وزراء بريطانيا وسُلطان المغرب على سبيل المثال. أنظر: Gottfried Hagen,, pp. 194 –197, 204
207.

وعلى كلِّ حال، سنتطرق إلى المؤلفات التي أصدرتها شخصيات عربية في إطار الدعاية لألمانيا عند الحديث عن المواقف العربية من الدعاية الألمانية.

⁶¹ مجالسة قنصل ألمانيا في دمشق للسكان في المقاهي والقيام بالدعاية لبلاده. راجع: Jacobsen, p.99.
⁶² PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, A 5037, Hardegg to Wagenheim, Damascus Dec. 21st 1914.

⁶³ وخلال عام 1915، جرى في برلين الاحتفال بعيد الأضحى بحضور كبار الشخصيات المدنية والعسكرية الألمانية. وكتبت الصحف الألمانية في افتتاحياتها "إن الأمة الألمانية كلها تحتفل الأضحى مع الأتراك وليعش السلطان". نقلاً

عن: Irmgard Farah, Die deutsche Pressepolitik, Beirut 1993, p.249.
PAAA/WK, Nr. 11g, /R21137, vol. 15, A 31999, Bl. 47.

توحيماً، وتصاغ بأسلوب يعطي الانطباع بأن الدعوة إلى تأييد ألمانيا إنما تأتي بمبادرة من عرب ومسلمين. وفي كثير من الأحيان، كانت الرسائل والمقالات تحرر بأسماء مستعارة أو وهمية.

وأبرز ما شددت عليه الدعاية الألمانية هما مسألتان: توطيد علاقات المسلمين بالسلطان العثماني كخليفة، والحصول على تأييد المسلمين ودعمهم لسياسة ألمانيا ودول الوسط. من هنا، ركزت هذه الدعاية على شرعية الخليفة العثماني وأحقّيته في الخلافة وحمائته لبيضة الإسلام، وعلى أن "الجامعة الإسلامية" هي تضامن إسلامي يعيد عن التفرقة المذهبية بين السنة والشيعية، فيما الجهاد هو واجب على كل مسلم ولا يشكّل خطراً على المسيحية.

ومن جهة أخرى، ركزت الدعاية الألمانية على أوامر الصداقة والمودة التي تجمع ما بين الألمان والمسلمين،⁶⁴ وعلى أخوة السلاح بين الجيشين الألماني والعثماني والتحالف المقدس بينهما.⁶⁵ وهدفت إلى إعطاء صورة مشرّفة عن ألمانيا وأهدافها النبيلة من الحرب، وأنها تسعى إلى مساعدة العالم الإسلامي على الارتقاء في مرحلة ما بعد الحرب، وأن تحالفه معها ليس من دون أساس، وإنما هو مع أقوى قوة في أوروبا من ناحية متانة اقتصادها وماليتها وصناعاتها وثقافتها وبنائها التحتية، كما يظهر من الجدول 3، هذا فضلاً عن حسن تنظيم قواتها العسكرية وتضامن الشعب الألماني مع جيشه وقيادته.⁶⁶ وفي هذا المعنى، جرت طباعة كتيب "الحياة الاقتصادية في ألمانيا قبل الحرب وخلالها" إلى خمس لغات شرقية.⁶⁷

جدول رقم (3) تفوق ألمانيا على أعدائها وفقاً للدعاية الألمانية⁶⁸

الدولة	عدد السكان (مليون نسمة)	عدد الأميين من بين 10 آلاف جندي	عدد الكتب التي تُطبع سنوياً	طول سكك الحديد (كلم)	حجم الثروة القومية بمليارات الماركات	مقارنة لحجم تجارة ألمانيا الخارجية مقابل بريطانيا وفرنسا (دون المستعمرات)	عدد مراكز البريد
ألمانيا	68	2	34,800	63,700	375		51,200
بريطانيا	46	100	12,100	37,700	*345	2 ضعف	24,500
فرنسا	39	320	9,600	51,200	245	2.5-3	14,600

* هناك خطأ على ما يبدو ما بين اللغتين العربية والعثمانية في ما يتعلّق بحجم ثروة بريطانيا. فتبعاً للكتابة العثمانية، فهي 345 مليار مارك. أما بالنسبة للكتابة العربية، فهي 545 مليار مارك. والصحيح

⁶⁴ Gottfried Galli, Dschihad. Der heilige Krieg des Islams und seine Bedeutung im Weltkriege unter besonderer Berücksichtigung der Interessen Deutschlands, Freiburg 1915, p. 38.

⁶⁵ PAAA Türkei 177/R 14032, Libanon, vol. 11, Löytved to Wagenheim, A 2046, Damascus, Dec. 22nd 1914.

⁶⁶ Farah, pp. 231–232.

⁶⁷ PAAA/Deutschland 126g, adh1, R 5135, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient.

⁶⁸ تعود المعلومات إلى كتيب بالألمانية بعنوان "الظلم والحق". ويحتوي على غلاف ملون وعلى منشورين و13 رسماً كاريكاتورياً ملوناً تحمل كتابات باللغتين العربية والعثمانية. وكانت هذه الكتيبات ترسل إلى متقنين في الدولة العثمانية في إطار الدعاية الألمانية ضد "دول الوفاق الثلاثي". راجع في هذا الخصوص الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية:

.PAAA R 1531, Deutschland Nr. 126g, adh1. Vol. 22, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient

هو 345 مليار مارك، ذلك أن الهدف من هذا الرسم هو إظهار تفوق ألمانيا على دولتي الوفاق الودي بريطانيا وفرنسا.

بالإضافة إلى ذلك، لفتت الدعاية إلى المعاملة الكريمة التي يلقاها الأسرى المسلمون في معسكراتها، والسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية والاحتفال بالأعياد الإسلامية. وأظهرت الإمبراطور وليم الثاني على أنه صديق للمسلمين ويقدر أبطالهم التاريخيين،⁶⁹ ولم تحاول أن تنفي الشائعات التي كانت تسري هنا وهناك حول اعتناقه الإسلام سراً،⁷⁰ ويقرب تحول شعبه إلى الدين الجديد،⁷¹ لما في ذلك من تأثير في المسلمين. ويندرج في سياق السياسة الإسلامية هذه، إهداء الإمبراطور ضريح السلطان صلاح الدين في دمشق ثرياً بمناسبة الحملة العثمانية على السويس.

إن إلقاء نظرة متفحّصة على مضامين بعض المنشير والكتيبات الدعائية الألمانية يظهر بوضوح كيفية توظيف ألمانيا مشاعر المسلمين وعواطفهم الدينية وطموحاتهم وتطلعاتهم الوطنية في التحرر والتخلص من الاستعمار من أجل صراعها مع "دول الوفاق الثلاثي". وجاء في أحد المنشير الموجهة إلى المسلمين والتي وزعتها الدعاية الألمانية: إن "ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا، كلٌ منها صارت الآن ظهيراتكم وعونكم على حرب أعدائكم فأنجدوهم جميعاً، وما عهدنا الدولة الألمانية إلا يداً بيضاء نقية من كل اعتداء عليكم".⁷²

ويحتّ منشور آخر المصريين على النهوض من سباتهم وإعلان الثورة ضد الإنكليز، مستفزاً حميتهم الإسلامية والشرقية بالقول: "أيها الشعب المصري وأبناء الإسلام جميعاً هل لكم في أن تنتهبوا من رقدتكم وتفقوا من سكرتكم وتذبوا عن حيبتكم وتعملوا إلى تحريركم من يد الظالم المستعبد لكم الذي قضى على بلادكم ودينكم وإحساسكم الشرقي، وسيقضى على أعقابكم ما دتم تحت نير العبودية ترتعون. هل لكم في أن تذكروا الشهامة العربية والشعور بوحدة الإسلام وتقتدوا (بالإبطال) ... ويكون لكم أيضاً عصر مصرية يخلدها لكم التاريخ ما توالى العصور؟ فنحن نسألكم متى تكون العصر المصرية؟ متى تكون العصر المصرية؟"⁷³

ويقول منشور آخر: إن ألمانيا والدولة العثمانية تتصديان لمحاولات "دول الوفاق الثلاثي" تدمير الإسلام وهدم الكعبة وقبر الرسول. ويتساءل المنشور عما إذا كان المسلمون يرتضون مصيراً كهذا لدينهم ومقدساتهم. فيدعوهم إلى الوقوف وقفة رجل واحد. ويخاطب حميتهم الإسلامية ضد أعداء الإسلام وألمانيا، بالقول: "فانهضوا (أيها المسلمون) لأمر الله ولأمر خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وخادم

⁶⁹ على سبيل المثال: زيارة الإمبراطور لضريح السلطان صلاح الدين بدمشق في تشرين الثاني عام 1898 حيث وضع عليه إكليلاً من الزهر وقال: "إن صلاح الدين كان الآية الكبرى في زمانه لناحية الشهامة والعدل والكرم". أنظر: عبد الرؤوف سنو، رحلة إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني إلى الشرق في مرآة الصحافة العربية المعاصرة، في: تاريخ العرب والعالم (بيروت)، 180 (1999)، ص 75-76. وفي السياق عينه، أهدى الإمبراطور في حزيران 1915 ضريح صلاح الدين ثرياً، في محاولة لكسب تأييد السكان المسلمين في بلاد الشام لمصلحة الحملة العثمانية على السويس. وقال لويقتد (Löytved)، قنصل ألمانيا في دمشق، في هذه المناسبة "إن الإمبراطور وليم الثاني أراد إهداء هذه الثريا بمناسبة زحف الجيش العثماني على مصر وتأييداً لرابطة الأخوة في السلاح بين الجيشين الألماني والإسلامي... (و) لتكون الثريا ذكرى لهذا الزحف الدال على العزيمة والشجاعة". وأضاف القنصل: "أني أفخر بهذه الرابطة الموحدة التي تأكدت بين الدولة العثمانية وثلاثمائة مليون مسلم المربوطة بالخلافة العظمى وبين إمبراطور ألمانيا وملته". أنظر: PAAA/Türkei 177/R 14032, vol. 11, Löytved an Wagenheim, A 2046, Damascus, Dec. 22nd. 1914.

وقارن بـ:

C.L. Sulzberger, German Preparation in the Middle East, in: *Foreign Affairs* 50, 3(1942), pp. 663 – 665.

⁷⁰ George Lenceowski, *The Middle East in World Affairs*, pp. 50 – 51.

⁷¹ قارن بـ: Richard Schäfer, *Islam und Weltkrieg*, Leipzig 1915, p. 5.

⁷² عنوان المنشور "ألمانيا ودولة الخلافة"، في: Hagen, pp. 186 – 187.

⁷³ PAAA/WK, Nr. 11 g, R 21123, vol. 1, Semiar für orientalische Sprachen to Unterstaatssekretär im A.A.. L 365116, A 20625, Berlin den Sept. 5th 1914. Mit Anh.

الحرمين الشريفين مكة والمدينة السلطان محمد رشاد الخامس نصره الله، الذي أعلن الجهاد المقدس في سائر أقطار الأرض على الدول الثلاث المذكورة (بريطانيا وفرنسا وروسيا)... إن دولة الإسلام والألمان والنمسا معكم والحال بيننا وبينهم واحدة، وأن من يكون مع جيش الأعداء وفي صفوفهم، فحرام عليه أن يحارب الدول المتفقة مع الإسلام فإنه مسؤول عند الله. فيجب عليه أن يلتحق بصفوف الألمان والنمسا (كذا) والعثمانية وعليه أمان الله ورسوله ويكون معزراً مكرماً ومن فعل خلاف ذلك فقد باء بغضب الله...⁷⁴

وبعدما عدّ منشور آخر سياسة "دول الوفاق الثلاثي" في تقاسم العالم الإسلامي ونهبه وتدني مفاصله، وإخضاع بريطانيا وروسيا وفرنسا على التوالي 100 مليوناً و40 مليوناً و30 مليوناً من المسلمين لحكمها، يختم بلفت انتباه المسلمين إلى أعدائهم، فيقول: "هؤلاء هم أعداؤكم وهذه هي أفعالهم معكم وهذه هي أفكارهم فيكم وفي دينكم وفي كتابكم (المقدس) ودينكم وبيتكم الحرام"...⁷⁵ ويوجههم المنشور مباشرة إلى ما يتوجب عليهم القيام به تجاه فرنسا بالقول: "اقتلوا جميع الفرنسيين اقتلوهم جميعاً... اذبحوا الفرنسيين اذبحوهم جميعاً جميعاً"⁷⁶. أما حلفاء الإسلام ومناصره ومحرريه، فهم الألمان تبعاً لما جاء في المنشور. فالله "قيض... الأمة الألمانية صاحبة الإخلاص للإنسانية والعالم الإسلامي وصديقة خليفتنا المعظم... وعقدوا النية جميعاً على تخليصكم من يد أعداء الله الموسكوف والإنكليز والفرنسيين، وأعلن الجهاد بإرادة من أمير المؤمنين، وصار الجهاد بذلك فرض عين على كل مسلم ومسلمة كبير وصغير". ويختم المنشور بالتحذير من الاستماع إلى أكاذيب الأعداء وخداعه.⁷⁷

وتحت عنوان "الجور والعدالة"، أي جور دول الوفاق وعدالة ألمانيا وحليفتها، ذكر منشور دعائي، إن انتصار ألمانيا على أعدائها هو كي "يصبح الشرق حراً من مستعبدية ظاهراً من الأرجاس والحشرات التي نبتت في أرجائه وكادت تنخر عظامه وتقضي عليه القضاء الأخير". ويختم بالقول: "إن الملايين العديدة من المسلمين في استطاعتهم تمزيق قيود الذل والاسترقاق التي كبلهم بها مغتصبو بلادهم لو أتيج لهم أن يستعملوا قوتهم وبأسهم"⁷⁸.

5- الفكر السياسي العربي والدعاية الألمانية

وفي إطار تحقيق أهدافها، سعت ألمانيا في مطلع الحرب إلى التقرب من الشريف حسين وضمه إلى "دول الوسط" ضد بريطانيا وتكليفه بالدعاية لها في العالم الإسلامي، نظراً إلى ما يتمتع به من رصيد عالٍ ومكانة رفيعة. وفي أيار 1915، حدث لقاء في الأستانة بين أوبنهايم والأمير فيصل بن الحسين، أكد خلاله الأمير ولاء أبيه للعثمانيين واستعداده لخدمة أهدافهم ضد "دول الوفاق الثلاثي". وتمحور الاجتماع حول خطة كبرى غايتها إحداث انتفاضة إسلامية من الهند حتى مصر تحت شعار "الجهاد المقدس"، وأن يقوم الشريف حسين في الوقت المناسب بإرسال أولاده على رأس وحدات حجازية للمشاركة في حملة عثمانية أخرى على السويس. كما تعهد الشريف بأن يتولى الترويج للجهاد في البلدان الإسلامية وإرسال تقارير عن أوضاع تلك البلدان، فضلاً عن تقرير يقدمه إلى أنور باشا كل أسبوعين عن الأوضاع في الجزيرة العربية.⁷⁹ ويذكر فيلاغو وكوفار أن أوبنهايم وعد فيصل بعرض

⁷⁴ نقلاً عن: Hagen, pp. 220–221.

⁷⁵ نقلاً عن: Hagen, pp. 218–219.

⁷⁶ منشور بعنوان "العصر الصقلي" في: PAAA/WK Nr 11g, R 21123, vol. 1, A 20625, Seminar für orientfaische Sprachen to Staatssekretär, Berlin Sept. 5th 1914.

⁷⁷ نقلاً عن: Hagen, pp. 218–219.

⁷⁸ PAAA R 1531, Deutschland Nr. 126g, adh1. Vol. 22, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient

⁷⁹ PAAA/WK, Nr. 11g, R 21133, vol. 11 A 17149, Wagenheim to Bethmann Hollweg, No. 310, Pera May 22nd 1915; Suppl. 1 & 2 to report 310, Pera May 15th 1915.

مصر بعد تحريرها من البريطانيين.⁸⁰ وفيما أبقى الشريف حسين على خياراته مفتوحة إزاء التحالف مع ألمانيا والسلطنة العثمانية من خلال اتفاق فيصل - أوبنهايم، كان الألمان يتصلون بعلماء الدين في النجف وتمكنوا من حثهم على إعلان "الجهاد المقدس" ضد بريطانيا ومقاومة حملتها على العراق.

ومن أبرز الشخصيات العربية التي تعاونت مع ألمانيا (الجدول 4)، إما اعتقاداً منها بسياستها الإسلامية المُعلنة وتحالفها مع الدولة العثمانية وصراعها مع "دول الوفاق الودي"، وإما بدافع كراهيتها لدول الاستعمار التقليدية، وإما بدافع الخوف على مصير المنطقة العربية في حال انهيارت الدولة العثمانية: شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد ومحمد فهمي وعبد الملك حمزة وعبد الرحمن عزام ومنصور رفعت. كما سعى الخديوي عباس حلمي الثاني بدوره للحصول على دعم ألمانيا والدولة العثمانية لاستعادة منصبه في مصر. وفي العراق، برز عزيز علي المصري، مؤسس جمعية "العهد"، فمال إلى ألمانيا بسبب كراهيته للبريطانيين واعتقاده بضرورة الحفاظ على الدولة العثمانية، من دون أن يتمخض عن هذا "الميل" علاقة مباشرة مع الدولة الألمانية. إشارة إلى أن الزعامات العربية المتعاملة مع ألمانيا كانت تحركها أيديولوجيات ومصالح مختلفة. وقد أثبتت الحرب أن تعاملها مع ألمانيا، وإن اختلفت أساليبه وطرقه، كان بدافع الاستفادة من الصراع الدولي من أجل قضيتها تحت شعار "عدو عدوي صديقي". كما كان للرأي العام في سورية ومصر موقفه تجاه ألمانيا وسياستها الإسلامية خلال الحرب.

جدول رقم (4) الشخصيات العربية التي تعاملت مع المؤسسات والأجهزة الألمانية خلال الحرب⁸¹

الاسم	الجنسية	الولادة والوفاة	النشاط	ملاحظة
أبو الفضل، سعيد مأمون	من الجزيرة العربية	1891 - ؟	في مكتب الاستخبارات وضابط في الجيش الألماني في البلقان	نشر كتاب وعدة مقالات في ألمانيا حول الإسلام
أرسلان، شكيب	لبناني	1869 - 1946	نشاط سياسي في ألمانيا عامي 1917 و1918	أصدر حوالي 40 مقالاً في ألمانيا عن علاقة الشرق والمسلمين بالحرب
باش حانيا، محمد	تونسي	1881 - 1920	تعاون مع المخابرات الألمانية	وضع مؤلفات بالفرنسية حول تونس والسياسية الفرنسية تجاهها
بوكابويه، رباح (الحاج عبد الله)	جزائري	1875 - ؟	عمل مع مكتب الاستخبارات في برلين	فر من الجيش الفرنسي والتحق بالألمان - نشر دراسات عدة عن الجهاد في المغرب العربي
التونسي، صالح الشريف	جزائري	1869 - 1920	عمل مع مكتب الاستخبارات	أسس لجنة من أجل استقلال تونس والجزائر
جاويش، عبد العزيز،	مصري	1876 - 1929	عمل مع مكتب الاستخبارات	أحد مؤسسي مجلة العالم الإسلامي - برلين
حمزة، عبد الملك	مصري	1886 - ؟	عمل مع مكتب الاستخبارات	عضو في الحزب الوطني. عرف بابن مروان

Filagot/Kauffer, p. 30.

Gerhard Höpp, Texte aus der Fremde. Arabische politische Publizistik in Deutschland, 1896 - 1945.⁸¹ Eine Bibliographie, Berlin 2000. و أنه/هاينه، الوطنيون العرب. تنسيق المعلومات وجدولتها من عمل المؤلف.

كتب مقالات للتأثير على الأسرى المسلمين في قبضة ألمانيا	تعاون مع مكتب الاستخبارات	1876- 1958	تونسي	محمد الخضر، حسين
انشق عن الحزب الوطني عام 1918، وله العديد من الدراسات والمقالات	عمل مع مكتب الاستخبارات	1883- 1926	مصري	رفعت، منصور مصطفى
حاول استغلال الألمان والبريطانيين من أجل استعادة منصبه	عمل مع الحكومة الألمانية	1874 - 1944	خديوي مصر	عباس حلمي (الثاني)
حفيد عبد القادر الجزائري	مكتب الاستخبارات	1857 - 1918	جزائري	عبد القادر، أحمد مختار
نشر مقالات حول الاستعمار الفرنسي في المغرب - تخوف من نوايا ألمانيا تجاه المغرب	مستشار في ألمانيا عام 1916 للشؤون المغربية	؟؟؟	مغربي	العتابي، السيد محمد
كتب عن نضال الليبيين والحركات الصوفية هناك	عمل مع المخابرات الألمانية خلال عام 1918	1893 - 1976	مصري	عزام، عبد الرحمن
عضو في الحزب الوطني	عمل مع مكتب الاستخبارات	1881/ 1886 - 1940	مصري	العناني، علي أحمد
رئيس الحزب الوطني بعد مصطفى كامل	تعاون مع مكتب الاستخبارات	1868 - 1919	مصري	فريد، محمد
نشر العديد من المؤلفات والدراسات حول القضية المصرية	تعاون مع الألمان في سبيل استقلال مصر	1880 - 1963	مصري	فهيمي، محمد

6- مواقف الرأي العام العربي من الدعاية الألمانية

سادت بين مسلمي الولايات العربية أجواء مؤيدة للدولة العثمانية وحليفاتها ألمانيا. وفي سورية، لم تكن التناقضات العربية - العثمانية التي ظهرت إلى الوجود في فترة ما قبل الحرب لتثير، على الأقل خلال مراحل الحرب الأولى، مواقف عدائية ضد ألمانيا. فكان الانطباع العام في بلاد الشام بأن تحالف ألمانيا مع الدولة العثمانية ليس موجهاً ضد المسلمين، بل ضد بريطانيا وفرنسا، حتى ولو أن قوات ألمانية كانت تحارب جنباً إلى جنب مع العثمانيين ضد الحركة العربية. وكان كثيرون مقتنعين بأن ألمانيا تعمل من أجل استقلال البلاد الإسلامية متأثرين بذلك بالدعاية الألمانية النشطة.⁸²

وبالنسبة إلى مواقف المسيحيين السوريين، أكد شكيب أرسلان على تعاطف هؤلاء مع "دول الوفاق الثلاثي" عموماً ومع فرنسا خصوصاً، وتحدث عن مخاوفهم من إلغاء الدولة العثمانية امتيازات جبل لبنان.⁸³ وذكر يوسف حكيم أن أهالي جبل لبنان كانوا متلهفين لنزول قوات الحلفاء إلى البلاد.⁸⁴ ونقلت صحيفة "الماتان" (Le Matin) الباريسية تصريحاً للبطريرك الياس الحويك حول استعداد

⁸² عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في "لبنان" 1831-1918، في: أوراق جامعية (بيروت)، 2(1993)، ص 231.

⁸³ PAAA/Türkei 177, R 14032, Der Libanon, Bd. 12, Wagenhein an Bethmann Hollweg, No. 250., A 28594, Therapia Oct. 24th 1914. 1 Suppl..

⁸⁴ يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط4، 1991، ص 159 - 160.

خمسة آلاف مسلح لبناني لمناصرة القوّات الفرنسية حالما تقوم بالإبرار على الساحل اللبناني. ويعتقد المؤلف أن في الخبر تحريفاً دعائياً أو مبالغة، علماً أن العديد من المسيحيين اللبنانيين في المهجر تقدّم للتطوع في الجيوش الفرنسية.⁸⁵

وفي بيروت، حتى قبل دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، انقسمت صحافتها بين فئة مؤيدة لسياسة الحكومة العثمانية ولانتصارات ألمانيا، وأخرى أعلنت عن ولائها لفرنسا وبريطانيا. كما وقفت فئة ثالثة من الصحافة المحليّة على الحياد بين الفريقين. وفي جبل لبنان، وساحل المتن وزحلة، عملت الصحافة هناك على تمجيد فرنسا كصديقة للبنان داعية لها ولجيوشها بالنصر. وأدى هذا الانقسام إلى حدوث "حرب صحفية" بين جريدة "زحلة الفتاة" الموالية لفرنسا لصاحبها شكري بخاش وإبراهيم الراعي، وصحيفة "الرأي العام" الموالية للألمان لصاحبها طه المدور.⁸⁶

وبسبب الكراهية لدول الاستعمار البريطاني والفرنسي والروسي، لم يستطع العرب والمسلمون إدراك حقيقة الإمبريالية الألمانية في الدولة العثمانية وأهدافها. فمنذ خطابه الشهير في دمشق عام 1898 حول صداقته للمسلمين، ورسائله الشهيرة إلى قيصر روسيا نيقولا في مناسبة الزيارة تلك حول إمكانية إشهار إسلامه، فيما لو لم يكن على الدين المسيحي،⁸⁷ أضحى إمبراطور ألمانيا في نظر المسلمين هو "الحاج غليوم"، الذي يدعو له المصلون في مساجد دمشق،⁸⁸ وابن السلطان عبد الحميد الثاني الذي أرسله والده سرّاً إلى برلين للدراسة،⁸⁹ والمنحدر من إحدى شقيقات الرسول والمتظاهر بالمسيحية كي تبقى قوّته وسلطته على رعاياه، مع رغبته وتأكيديه على أسلمة شعبه في الوقت المناسب.⁹⁰ لقد وصلت سذاجة البعض إلى اعتبار وليم الثاني السيّد الذي "...وهبه الله للإسلام (والذي) لا يتبع القانون والأعراف المسيحية المقدّسة. فهو الذي ينتقم لأطفال أمته ويقاوم المرتدين والكفرة. ولأنه موثوق الكلام، جعله الله صديقاً للمسلمين. إنه محارب شجاع وبطل، فإذا ما تمعنّت في سلوكه تجاه المسلمين، تقول بما لا يحتمل الشك: إنه في عداد النفوس النبيلة التي تخلّت عن الأصنام والصليب واتبعت الشريعة التي أنزلها سيّد الناس أجمعين على النبي محمد. وعليه، فقد وهبه الله محبتنا ورضانا. فشعوب العالم ترتعد أمام سطوته، لاسيما وأنه في تشاور تام مع أمير القسطنطينية... هذا الحاكم هو سلطان الألمان".⁹¹

وفي السياق نفسه، استرجعت صحيفة "أبايل" البيروتية في 21 كانون الأول 1914 بمناسبة إهداء العاهل الألماني ثريا إلى ضريح السلطان صلاح الدين في دمشق عشية التحضيرات الألمانية - العثمانية للحملة على مصر، زيارة الإمبراطور إلى ضريح السلطان صلاح الدين عام 1898. فتساءلت عن سبب قدوم الإمبراطور إلى دمشق وتمجيده للسلطان صلاح الدين، و"... هل إنه (وليم

⁸⁵ الحكيم، بيروت ولبنان، ص 153-154، 156. وفي أيلول 1914، أي قبيل دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب "دول الوسط" بشهرين، بعث شكري غانم، رئيس اللجنة اللبنانية في باريس، إلى وزير الخارجية الفرنسية يطلب إليه إبقاء جورج بيكو، قنصلها العام، في بيروت في منصبه، حتى ولو دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا. وبرّر غانم ذلك، بأن وجود بيكو المعنوي سوف يساعد اللبنانيين على الدفاع عن جبل لبنان في وجه اجتياح عثماني. ورأى أنه إذا أمكن تسليح ما بين 10 آلاف و15 ألف لبناني وتزويدهم بالذخائر عن طريق مرفأ بيروت، فسوف يكون بالإمكان طرد العثمانيين. راجع في هذا الخصوص: Tauber, pp. 13f.

⁸⁶ الحكيم، بيروت ولبنان، ص 138-140.

⁸⁷ جاء في تلك الرسالة ما يلي: "كان شعوري الشخصي عند مغادرتي المدينة المقدّسة (القدس) مليئاً بالخجل تجاه المسلمين. فلو كنت قدمت إلى هنا من دون دين، لكنت تحوّلت بالتأكيد إلى الإسلام... أعود إلى بلادي بخيبة كبيرة واقتناع راسخ بأن قبر المسيح المقدّس ليس في مأمن تحت إشراف أية من الكنائس هناك. هذه الكنائس، بمظهرها وزخارفها، لا يمكن إلا أن تقارن سلباً ببساطة ومهابة وعظمة مسجد عمر"، نقلاً عن: سنو، الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية، ص 246.

⁸⁸ PAAA/WK 11g, R 21124, vol. 2, E. Schäffer to Mathieu, A 22364, Saarbrücken, Sept. 1914.

⁸⁹ Müller, Herbert Landolin, Islam, gihad ("Heiliger Krieg") und Deutsches Reich. Ein Nachspiel zur wilhelminischen Weltpolitik im Maghreb 1914-1918, Frankfurt a.M. ect. 1991, p. 166.

⁸⁸ F.J. Dupre The Holy Was that Failed, in: *Moslem World* 8(1918), pp. 173-174.

⁹¹ Müller, p. 166.

الثاني) افتتن بعلمه العسكرية وفنونه الحربية (أي صلاح الدين) ... أو إن جلالته وقف على أساس الدين الإسلامي المبين وأيقن إنه هو المنهج القويم والصراف المستقيم...⁹²

وفي مصر، أدى الزحف الألماني على بلجيكا وهزائم بريطانيا، إلى "موجة من الشعور العدائي تجاه الإنجليز والموالي للألمان". واعتبرت صحيفة "الشعب"، لسان حال "الحزب الوطني"، أن انتصار ألمانيا والدولة العثمانية في الحرب معناه الخلاص من البريطانيين وسلطتهم العسكرية وأحكامهم العرفية.⁹³ وفي 5 تشرين الثاني 1914، ذكرت المصادر الألمانية أن المصلين في أحد المساجد المصرية ذكروا بالخير "رحلة الحج" التي قام بها الإمبراطور الألماني إلى فلسطين في العام 1898، ودعوا الله لأن ينصر "الحاج محمد ولیم الثاني".⁹⁴ وفي صيف 1915، راجت شائعات في مصر عن قرب انتصار ألمانيا ودخول حملة عثمانية ثانية إلى مصر على رأسها الخديوي عباس حلمي الثاني لطرد البريطانيين من البلاد، حتى أن البعض روج وصول تلك الحملة إلى الدلتا. وبلغ الأمر حداً أزعج سلطات الاحتلال، عندما تجرأت عناصر مصرية على المجاهرة علناً بعدائها للبريطانيين والدعاء لانتصار ألمانيا. وأصبحت هذه المسألة حديث الناس في المقاهي والنوادي ووسائل النقل، حتى أن البعض حمل خارطات تحدّد جبهات الحرب التي يحقّق فيها الألمان انتصاراتهم. وعلى ما يبدو، كان عملاء ألمان هم وراء الشائعات حول وصول الحملة العثمانية إلى منطقة الدلتا، وإن الخديوي عباس حلمي الثاني اتفق مع الألمان على استقلال مصر وسافر من أجل ذلك إلى فيينا.⁹⁵ ولا يعود التعاطف المصري مع ألمانيا وتمني انتصارها على بريطانيا إلى ودّ تجاه الدولة الأولى، وإنما لأنها كانت عدوة دولة الاحتلال بريطانيا. ومع ذلك، لم يصل تعاطف المصريين مع ألمانيا إلى مستوى الثورة، وذلك بسبب افتقار الشارع المصري إلى القيادة، وخصوصاً بعد تنكيل بريطانيا بالحزب الوطني وتشيتب أعضائه خارج البلاد.⁹⁶

وفي فلسطين، رصد المرابي خليل السكاكيني تأثير الدعاية الألمانية في بلده. فنقل في أحد كتبه أهزوجة ردها الفلسطينيون: "غليوم يا خالنا، بسيفك نأخذ تارنا"، أي أن دولة مسيحية تحارب عن المسلمين وتثأر لهم. وهذا إن دلّ على شيء، فعلى أن المسلمين كان لديهم مرض "الاستسهال". فبدل من التعلّم من الألمان والاقتراء بهم، فضلوا اختصار الطريق، وأسلمة الألمان وإمبراطورهم، وجعلهم جنوداً يحاربون أعداءهم عنهم. وتحدّث السكاكيني عن اختراع العثمانيين والألمان ما يسمى بـ "راية النبي محمد" وخروج سكان القدس والقرى المجاورة لاستقبالها وتقبيلها والتبرّك بها، وسط صحبات التكبير. لكن السكاكيني لاحظ أن الراية جديدة وصنعت من عهد قريب.⁹⁷

وفي العراق، تعاطف سكانه خلال مراحل الحرب الأولى من العثمانيين وحلفائهم الألمان. ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى كراهيتهم للبريطانيين، وإلى الانتصارات العسكرية التي حققتها "دول الوسط" في مراحل الحرب الأولى. وقد حاولت ألمانيا توظيف مشاعر العراقيين هذه عبر دفع المرجعيات الشيعية في كربلاء والنجف لإصدار فتوى تؤيّد "الجهاد الإسلامي" ضد بريطانيا وروسيا، بهدف جعل فارس تنضم إلى المحور في الحرب، وفي الوقت نفسه تحريض المسلمين في الهند على الثورة ضد بريطانيا.⁹⁸

⁹² سنو، الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية، ص 267-268.

⁹³ لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص 296.

⁹⁴ Rathmann, p. 83.

⁹⁵ على سبيل المثال: قيام طائرة بريطانية بقصف بعض أحياء القاهرة وترويج الشائعات بأن ألمانيا هي المسؤولة عن ذلك.

أنظر: لطيفة سالم، ص 305-306.

⁹⁶ لطيفة سالم، ص 297-308.

⁹⁷ أسامة العيسة، "كيف أصبح إمبراطور ألمانيا خالاً للمسلمين؟"، موقع: إيلاف، 30 كانون الثاني 2007

<http://www.elaph.com/ElaphWeb/ElaphLiterature/2007/1/207741.htm>

⁹⁸ Werner Ende, Iraq in World War I: The Turks, the Germans and the Shi'ite Mujtahids' Call for Jihad, in: Rudolph Peters ed. *Proceedings of the Ninth Congress of the Union Europeenne des Arabisants et Islamisants*, Amsterdam, Ist to 7th September 1978, Leiden 1981, pp. 57-58.

وفي هذا السياق، زارت بعثة ألمانية برئاسة فريدرش كلاين (Kleinexpedition) كربلاء، وأخرى النجف على رأسها عالم الآثار الدكتور برويسر (Preusser) واتصلنا بالمرجعيات الشعبية هناك، وذلك ما بين نهاية العام 1914 ومطلع كانون الثاني 1915.⁹⁹ وبناءً عليه، أصدر علماء الشيعة¹⁰⁰ فتاوى تدعو للجهاد ضد البريطانيين الذين كانوا بدأوا غزوهم للبلاد في تشرين الثاني 1914. وأعلن المجتهد الأكبر في كربلاء علي خانقين¹⁰¹ عن استعداده لتزويد الألمان برسالة موجهة إلى شاه إيران يحثه فيها على التخلي عن حياده في الحرب والانضمام إلى دول المحور.¹⁰² كما أصدر السيد هبة الدين الشهرستاني، وهو أحد القيايين الشيعة، "فتوى خاصة" ركزت على الصداقة بين المسلمين والألمان استناداً منها الدعاية الألمانية في مناطق جنوب العراق وإيران. ولقت الشهرستاني في فتواه إلى نوايا ألمانيا الحسنة تجاه الإسلام من خلال مسائل ثلاث: زيارة إمبراطورها إلى ضريحي السلطان صلاح الدين ومحي الدين بن العربي في العام 1898، وإطلاق ألمانيا سراح الأسرى المسلمين لديها الذين كانوا يحاربون في جيوش الحلفاء، وأخيراً وقوف ألمانيا إلى جانب الدولة العثمانية في الحروب البلقانية في العامين 1912/1913.¹⁰³ وفي الوقت نفسه، نشر المجتهد مهدي الخالصي رسالة عنوانها "الحسام البتار في جهاد الكفار" دعا فيها إلى مقاومة البريطانيين،¹⁰⁴ فيما دعا الشاعر العراقي معروف الرصافي في أشعاره العرب إلى موازرة الدولة العثمانية ضد أعدائها.¹⁰⁵

وعلى الصعيد العملي، وجدت هذه الدعوات صدى لها في أوساط العراقيين. فانضمت عشائر الفرات الأوسط إلى العثمانيين في الدفاع عن العراق ضد الغزو البريطاني، وهجر الموظفون العراقيون دوائهم وانسحبوا مع العثمانيين المتقهقرين، فيما حافظ الضباط العرب على ولائهم للسلطات العسكرية العثمانية.¹⁰⁶ ومع ذلك، لم يستمر هذا الوضع طويلاً بسبب التباعد بين القوميتين العربية والتركية، وما لحق بالعثمانيين من هزائم عسكرية على يد البريطانيين، وانتشار المجاعة والأوبئة في البلاد، فضلاً عن صدى سياسة البطش التي اتبعتها جمال باشا في سورية و ثورة الحجاز – كل هذه الأمور قضت على تضامن العراقيين مع الدولة العثمانية، فثاروا على الدولة العثمانية.¹⁰⁷ وفي الوقت نفسه، بدأت اتصالات مع الإنكليز بهدف الانضمام إلى الحركة الحجازية.¹⁰⁸

بالإضافة إلى ذلك، اتخذ بعض شيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين مواقف مؤيدة لألمانيا وللسلطنة العثمانية ومعارضة حلفاء بريطانيا من العرب والمسلمين. ففي جريدة "الرأي العام" لسنة 1915، والتي كانت تمولها الدعاية الألمانية، كتب الشيخ زاده أسعد صاحب، شيخ الطريقة النقشبندية في دمشق، مقالاً بعنوان "بيان هام إلى العالم الإسلامي" امتدح فيه السلطان لإعلانه الجهاد من أجل الدفاع

⁹⁹ Gehrke, 1.1, p. 56.

¹⁰⁰ وهؤلاء هم: في (النجف) السيد محمد سعيد الحبوبى والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد عبد الرزاق الطلو والشيخ جواد صاحب الجواهرى. وتبعهم بعد قليل شيخ الشريعة الأصفهاني في إعلان الجهاد ضد البريطانيين. لكنه ما لبث أن تفاهم مع البريطانيين بعد ذلك. وفي كربلاء، أصدر المجتهد علي العراقيين فتوى الجهاد، وأرسل منها نسخة إلى شاه فارس. أنظر: وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ط3، بيروت 1986، ص 125. كما دعا علي العراقيين الشاه للانضمام إلى "دول الوسط". لكن كل هذه الجهود الألمانية باءت بالفشل، ولم تؤدي إلى انضمام فارس إلى دول الوسط. كما نظرت السلطنة العثمانية بارتياح إلى

التحركات الألمانية في العراق، واعتبرتها تدخلًا في شؤونها الداخلية. Gehrke, 1.1, pp. 56–57.

¹⁰¹ يعتقد أنه علي خانقين (=علي المازندراني) الذي سلم الألمان فتوى بإعلان الجهاد ضد بريطانيا وحلفائها، لم يكن المجتهد الأكبر لكربلاء (محمد حسين الحريري المازندراني)، بل شقيقه. وكان المجتهد الأكبر محمد حسين قد سبق وأصدر في كانون الأول 1914 مع ثلاثة علماء شيعة آخرين في النجف والكاظمية وسامراء فتوى لإعلان الجهاد ضد بريطانيا، أي قبل وصول بعثة كلاين. ويرى أنه، أن المرجعيات الشعبية خشيت من ارتياح العثمانيين من جراء الاتصالات بينهم وبين الألمان، ووجدوا أنه من الحكمة إبعاد المجتهد الأكبر عن هذا الموضوع، وتقرر اختيار شقيقه المجتهد علي العراقيين (علي المازندراني) ليوقع على الفتوى. أنظر: Ende, Iraq in World War I, p. 67–68.

¹⁰² Ende, Iraq in the World War I, p. 58.

¹⁰³ Ende, Iraq in World War I, pp. 69–70.

¹⁰⁴ عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة 1920، بغداد 1963، ص 109–110.

¹⁰⁵ Sharabi, Arab Intellectuals, No. pp. 122–123.

¹⁰⁶ نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية، ص 122–126.

¹⁰⁷ Eliezer Tauber, The Arab Movements in World War I, London 1993, p. 8.

¹⁰⁸ نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية، ص 125–155.

عن الدين والوطن ضد بريطانيا وفرنسا عدوتنا الإسلام، وضد روسيا التي تسيء معاملة المسلمين عندها. واعتبر أن قتل الكفرة الذين يتحكّمون في العالم الإسلامي هو واجب مقدّس على كلّ مسلم، لأنه من غير المسموح به شرعاً أن يُحكّم المسلمون من قبل غير المسلمين. كما طالب البيان المسلمين بمقاطعة "دول الوفاق الثلاثي" تجارياً وعدم الامتثال لأوامرهم أو دفع الضرائب. وختم بالقول، إن ألمانيا والنمسا/هنغاريا "هم الأصدقاء الحقيقيون للمسلمين".¹⁰⁹ واعتبر الشيخ أسعد أن دعم هاتين الدولتين هو واجب على كلّ مسلم. ونظراً إلى أهمية الكتيب بالنسبة إلى الدعاية الألمانية، أمر متفوخ بطبع ألف نسخة منه وتوزيعها في المناطق الناطقة باللغة العربية.¹¹⁰

وفي مقال للشيخ المذكور في مجلة "الجهاد" الألمانية (العدد 51) نُشر أيضاً في صحيفة "الرأي العام"، اعتبر أسعد صاحب "إن تحالف الخلافة مع الدولتين ألمانيا والنمسا يهدف إلى حماية القرآن وعرش الخلافة"¹¹¹. كما كان لعلماء الدين في الأزهر مواقف عنيفة تجاه تحالف القوميين العرب مع البريطانيين. وأصدروا فتوى بعد إعلان الشريف حسين ثورته على العثمانيين تدين "الخونة والمرتين الذين يؤيدون صنيعة الإنكليز الملك حسين به علي". واعتبرت الفتوى الحركة الحجازية مؤامرة بريطانية لكسر الوحدة الإسلامية.¹¹²

7- استنتاج

لقد فشلت الدعاية الألمانية في تحقيق أهدافها. فإعلان جهاد عربي داعم لبريطانيا تسبّب في كارثة حقيقية لمشروع ألمانيا في الجهاد "العثماني". فلم يحرك الجهاد الأخير ساكناً عند المسلمين في العالم وراء فكرته الدينية - السياسية، وظلّ من دون صدى، على حد تعبير مراقب معاصر.¹¹³ صحيح، أن "الجهاد العثماني" تسبّب في قلق لدى "دول الوفاق الثلاثي" حول مصير مستعمراتها، لكنه بقي من دون تأثير عملي في مجريات الحرب. إن تراجع هيبة السلطان العثماني الروحية، ودعوة "الجهاد" التي أطلقها شيخ الإسلام معتمدة على تحالف مع قوى مسيحية (ألمانيا والنمسا/هنغاريا)، نزع عن تلك الدعوة الصفة الشرعية الضرورية لنجاح مشروع التحالف¹¹⁴، وشكّل سلاحاً في أيدي دول "الوفاق الثلاثي" لمهاجمة الدولة العثمانية واتهامها بأنها متحالفة مع دولة مسيحية.¹¹⁵

لقد ثبت أن مصر لم تتجاوب مع دعوات التحريض على الثورة، في حين أعلن العرب في سورية والعراق والحجاز جهادهم الخاص وثاروا على السلطنة لمصلحة بريطانيا. ويعود ذلك بشكل رئيسي إلى ثلاثة أسباب، يتعلّق الأول بالسياسة العثمانية نفسها تجاه ولاياتها العربية، وفي مقدّمها سياسية الاتحاديين في تقديم القومية الطورانية على حساب "الجامعة الإسلامية" وتجاهلهم الشخصية الوطنية العربية، ورغبتهم في استعادة السلطنة سلطتها المباشرة على ولاياتها العربية بعد الحرب. أما السبب الثاني، فيتعلّق بشبكة التحالفات التي أقامتها بريطانيا مع الزعامات العربية. أخيراً (السبب الثالث)، أن ألمانيا لم تأخذ في عين الاعتبار مصالح العرب القومية ولم تحاول حتى أن تستغلّها، كما فعلت

Jacob M. Landau, The Politics of Pan-Islam. Ideology and Organisation, Oxford 1990, pp. 113-114, 109
351-357.; Dupre pp. 173-175.

PAAA/ Deutschland 126g, R 1514, Akten betreffend Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol. 5, A 34265/15, Mittwoch to ??, Berlin Nov. 22th 1915. 110

PAAA/ Deutschland 126g, R 1514, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol. 5, Schabinger to Wesendonk, A 34265, Berlin Nov. 24th 1915. 111

112 نقلاً عن: نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية، اشية 42، ص 149-148.

113 Paul Schmitz, All-Islam! Weltmacht von morgen, Leipzig 1937, p. 62.

114 كوثراني، الأبعاد الجيوسياسية لتقسيم العالم الإسلامي، ص 98-99.

PAAA/ Deutschland 126g, R 1514, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol. 5, Schabinger to Wesendonk, A 34265, Berlin Nov. 24th 1915. 115

بريطانيا، بل ظلّت طوال الحرب تراعي مصالح حليفها الدولة العثمانية التي كانت تسعى لإعادة إحكام سيطرتها على الوطن العربي بعد الحرب.

وبالنسبة إلى مصر، رفض الوطنيون المصريون خلال الحرب استبدال بهيمة عثمانية أخرى بريطانية. وكان "الحزب الوطني" على استعداد للقبول بتبعية سورية للدولة العثمانية، إلا أنه لم يوافق على أن تستعيد حكومة استانبول سلطتها المباشرة على مصر بعد الحرب. وفيما يتعلّق بسورية، أدت ممارسات جمال باشا ضد القوميين العرب هناك إلى قطيعة بين السكان والعثمانيين. ولم تنفع استغاثة شكيب أرسلان بأنور باشا ولا صداقته معه في إنقاذ الوطنيين العرب من مشانق القائد العثماني جمال باشا.¹¹⁶ وكانت السياسية العثمانية هذه إحدى العوامل التي جعلت العراقيين ينضمّون بدورهم إلى الحركة الحجازية أو يثوروا ضد الهيمنة العثمانية.

ومن جهة أخرى، تمكّنت بريطانيا من أن تلعب على التناقضات العربية – العثمانية (القومية التركية والقومية العربية) وبالتالي احتواء كل مخططات ألمانيا في شقّها العربي وتطويق التحالف الألماني - العثماني، عبر سلسلة من الاتفاقات والمعاهدات مع إمارات الخليج العربي صبّت في إستراتيجيتها القاضية بتكوين جبهة عربية واسعة ضد "دول الوسط"، وخصوصاً ضد الدولة العثمانية: الكويت في رأس الخليج (الشيخ مبارك)، والشريف حسين في الحجاز على الجانب الغربي للجزيرة العربية، وابن سعود في شرقها ووسطها، هذا بالإضافة إلى مركزها المهيمن على ساحل الخليج العربي وفي اليمن الجنوبي. وبذلك، ضمنت بريطانيا حماية ظهرها من قبل السعوديين أثناء حملتها على العراق، وجعلت الهاشميين وحلفائهم من الحركة العربية ينخرطون في حملتها على سورية.¹¹⁷

وفيما تمكّنت بريطانيا بدائها من أن تجمع النخب البدوية والمدنية العربية وراءها، وأن تتعامل بذكاء من طموحاتهم الشخصية والقومية، لم تركّز ألمانيا في دعايتها على حمل الدولة العثمانية على الاعتراف بحقوق العرب القومية، أو حتى إصدار التصريحات والوعود في ذلك الشأن. فانصبت دعايتها في العالمين العربي والإسلامي على مضامين "الجامعة الإسلامية"، وعلى ضرورة إطاعة السلطان العثماني بصفته خليفة وبالتالي بقاء العرب تحت مظّته. وفي المقابل، لم تحرّك ألمانيا ساكناً تجاه سياسة العثمانيين التعسفية في سورية أو في العراق، ولم تحاول حتى أن توجه لهم أي انتقاد حازم. وعن طريق قنصل ألمانيا العام في بيروت، تمكن العثمانيون من الوصول إلى ملفّات القنصلية الفرنسية التي احتوت على أسماء الناشطين في الحركة العربية ضد السلطات العثمانية.¹¹⁸

وعلى الجبهة المصرية، لم تتمكّن ألمانيا من الجمع بين العثمانيين والوطنيين المصريين والخديوي عباس حلمي الثاني في معسكر واحد على الدوام. وقد اشتكى الألمان أكثر من مرّة من أن الوطنيين المصريين في المنفى قد انشغلوا بخلافاتهم ضد بعضهم البعض أكثر من تكوين كتلة موحّدة ضد بريطانيا. وفي الحجاز، باءت بالفشل محاولات ألمانيا لاستقطاب الشريف حسين، من خلال مفاوضات أوبنهايم – فيصل في مطلع أيار 1915¹¹⁹، وحثّ الدولة العثمانية على تعيينه في منصب شيخ

¹¹⁶ Tauber, p. 36.

¹¹⁷ عبد الرؤوف سنو، اتفاقات بريطانيا ومعاهداتها مع إمارات الخليج (1798-1916): فصول من سياسة الهيمنة

والتفتيت، القسم الثالث، في: **تاريخ العرب والعالم** (بيروت)، 17 (1998)، ص 61 – 64.
¹¹⁸ في الواقع، عرف العثمانيون بمكان الملفّات عن طريق فيليب زلزل، ترجمان القنصلية الفرنسية، عندما أبلغ هذا الأخير إلى قنصل ألمانيا العام عن استعداده للبوخ بمكان الوثائق شرط أن يضمّن العثمانيون له حياته. وقد قام القنصل الألماني بإبلاغ العثمانيين بما لديه من معلومات. انظر: Tauber, pp. 39-40.

¹¹⁹ أجرى أوبنهايم هذه المفاوضات مع الأمير فيصل بن حسين في الأستانة من أجل استقطاب والده ووقف الجفاء بين الأخير وبين الحكومة العثمانية.

PAAA/Der Weltkrieg/R21132, vol. 11, Oppenheim to Auswärtiges Amt, No. 1055, A. 15281, Pera 5. May, 1915, وكان الألمان يريدون أن يقوم الشريف حسين بتوزيع المنشورات الدعائية على الحجيج في مكة بنفسه أو

الإسلام. ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى مراعاة الألمان لحساسية العثمانيين تجاه هذه المسألة من جهة، وإلى نجاح بريطانيا في إفساد مشروع التحالف بين ألمانيا والشريف حسين بفضل لورانس من جهة أخرى.¹²⁰

أما في العراق، فلم تستطع البعثتان الألمانيّتان تحقيق أهدافهما الإستراتيجية، وهي جرّ فارس إلى الانضمام إلى "دول الوسط"، وتحريض شيعة الهند على الثورة ضد بريطانيا. فصدرت الفتاوى متزامنة مع الاجتياح البريطاني لجنوب العراق، وليس انسجاماً مع مصالح ألمانيا وأهدافها من الحرب. ويعتقد أنه، أن السبب وراء صدور الفتوى عن المجتهد علي العراقيين لمصلحة الألمان والتي لم تُغيّر شيئاً من موقف المرجعيّات الشيعية المعادي لبريطانيا في مطلع الحرب، أن كلاين قد دفع مبلغ 50 ألف مارك لتلك المرجعيّات كتعويض أولى على الهبات التي كانت تصلها من الهند وأوقفها بريطانيا بعيد اندلاع القتال.

ومن جهة أخرى، أثبتت المعاملة "الحسنة" التي وفرتها ألمانيا لأسرى الحرب المسلمين عندها، ومن ثم تجنيدهم في جيوش الدولة العثمانية فشلها.¹²¹ ويذكر هاينه إنه من أصل أربعة آلاف أسير من شمال إفريقيا أعلن حوالي 800 منهم استعدادهم للانضمام مجدداً إلى جانب "دول الوسط".¹²² وما أن توافرت لهؤلاء الآخرين الفرصة للفرار من ميادين القتال، حتى انضم معظمهم إلى جبهات القتال التابعة لدول الوفاق الثلاثي. وإن دلّ هذا على شيء، فإنما على خرافة "الجامعة الإسلامية"، وعلى أن الاتجاهات القومية عند العرب كانت أقوى من مغريات هذا النوع من التضامن الديني. إلى ذلك، تناقضت ادعاءات ألمانيا بأنها نصيرة الإسلام مع سياستها الاستعمارية، حيث كانت تحكم في مستعمراتها نحو أكثر من 2 مليون إلى 2.5 مليون من المسلمين.¹²³

لقد اكتفت ألمانيا خلال الحرب باستقطاب الشخصيات الإسلامية والعربية عندها واستخدامهم في حملاتها الدعائية، جاعلة منهم مجرد مصادر للمعلومات أو أدوات للدعاية وليس حلفاء. فمعظم مقالاتهم وكتيباتهم التي نشرت في ألمانيا، كانت تُحرر من جديد وتخضع لرقابة "مكتب استخبارات الشرق" ووزارة الخارجية الألمانية. كما أن تحركات هؤلاء داخل ألمانيا وخارجها كانت تحدث في معظم الأحيان بتخطيط وإشراف من وزارة الخارجية ومكتب الاستخبارات. حتى أن الدوائر الألمانية كانت تصف العرب والمسلمين العاملين لدى أجهزتها الاستخباراتية بـ "المتعطشين إلى المال". وبخسارة ألمانيا والدولة العثمانية للحرب، أضحى الوطنيون والإسلاميون الذين تعاملوا معها عرضة للهجوم وتوجيه التهم الشنيعة إليهم من قبل أتباع الحركة العربية في المشرق بأنهم باعوا القضية العربية.¹²⁴

تحت إشراف والي جدّة وهيب بك. PAAA/WK Nr. 11g, R 21124, vol. 2, Ausw. Amt, Abschrift, A 26481, Oct. 13th, 1914. وأن يقدم الشريف تقريراً سياسياً عن الوضع. وعندما علم العثمانيون باللقاء، احتجوا عليه. Mc Kale, pp. 26–27.

¹²⁰ كان يتنازع وزارة الخارجية الألمانية اتجاهان، الأول مثله أوبنهايم، ورأى وجوب عدم التقرب إلى الشريف خشية إثارة العثمانيين. ونصح أوبنهايم المسؤولين الألمان بالتخلي عن هذه الفكرة والتركيز على دعم مركز السلطان كخليفة وتقوية في العالم الإسلامي وبالتالي في المشرق العربي. أما الاتجاه الثاني، فعبرت عنه البعثة العسكرية الألمانية في الأستانة وفانغنهايم (Wangenheim)، السفير الألماني هناك. فشدد على ضرورة عدم إهمال الشريف حسين. وبعد فشل الحملة العثمانية الأولى على مصر، ساد في وزارة الخارجية الألمانية تيار أوبنهايم حول هذه المسألة. حول هذا الموضوع، راجع وجيه عتيق، دراسات في تاريخ مصر الحديث، مرجع سبق ذكره ص 105 – 112.

¹²¹ أُنده/هاينه، ص 212.

¹²² Heine, Al-Gihad, p. 199.

¹²³ Victor Berard, Le Sultan, L'Islam et les Puissances, Paris 1907, p. 37.

¹²⁴ أُنده/هاينه، ص 214.

